

رسالة النصيحة أو « النورية »

لابن سبعين

« تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي »

[٨٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وله رضى الله عنه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً .

نصيحة نصحتها من يحض على الله ويستجلب حمده لحل القابل لها ، وتستلزم الكمالات وتعطى أسبابها بسعادتين وحكمتين وخبرين باعتبارين وجهتين وقصدين ؛ يُحَصِّلُهَا مَنْ هِيَ عُنَايَتُهُ تَجْذِبُ الْوَاجِبَ لِدَانِهِ الْمَرْحُومَةِ بِالذَّاتِ ؛ وَيَتَرَدَّدُ فِي مَدْلُوحِهَا وَيَتَخَلَّقُ بِهَا مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِلْخَيْرِ بِالْعَرَضِ ؛ وَقَصْدُهَا وَجْهٌ مَدْلُولٌ شَرَحَهَا . وَوُضِعَتْ لِلْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، فَإِنَّهَا صَالِحَةٌ بِالْجَمِيعِ . وَهِيَ مَوْضُوعُ الشَّرِيعَةِ وَمَحْمُولُ الْحَقِيقَةِ . وَمَاهِيَّتُهَا مَرْكَبَةٌ مِنَ الْأُنْسِ بِاللَّهِ ، وَسَبَبُ الْأُنْسِ بِهِ ، وَاللَّذَّةُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْعِبَادَاتُ الْقَلْبِيَّةُ وَالْجَسْمَانِيَّةُ . وَبِالْجُمْلَةِ : جُمْلَتُهَا صَالِحَةٌ ، وَتِجَارَتُهَا رَابِحَةٌ ، وَسَعَايَتُهَا نَاجِحَةٌ . وَاللَّهُ هُوَ أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا ، وَظَاهِرُ قَصْدِهَا وَبَاطِنُ مَجْدِهَا . وَقَدْ حَانَ وَقْتُ بَثِّهَا فَنبداً . فنقول .

يأيتها الباحث عن تحصيل كماله واستجلاب ما يجب كما يجب في الوقت الذى يجب ممن يجب بمن يجب على ما ينبغي . عليك بذكر الله الذى علمك وأرادك وعلمك وحكمك من كل الجهات وهو بُدُّكَ^(١) اللازم ، ووجودك الثابت ،

(١) البد : فى الأصل : الصنم ؛ وبالمعنى الصوفى عند ابن سبعين : المثال الأعلى . ولابن سبعين كتاب رئيسى هو « بد العارف » منه مخطوط فى استانبول . وكتب عنه الأب لاتور فى مجلة « الأندلس » :
Esteban Lator : *Ibn Sab'in de Murcia y su « Budd al-'Arif »* Al-And. 1944, vol. IX, Fasc. 2, p. 371—417.

وَالْمُنْقَلَب . وهو الذى يُسْعِدُكَ ، وسعادتك رضوانه^(١) ، ورضوانه يحملك إلى حضرتة ، وحضرتة تخزن^(٢) ذاتك من ذل الـكون المهلك والممكن^(٣) القابل المنقلب ، وتحكمك فى الرحمة والوجود المطلق ، وتصرفك فى التقيد ، وتطلعك على المقدر ، وتبلغك إلى أقصى الإنسانية من جهة التخصيص وبحسب الأمور التى لا من جنس ما يكتسب ولا من جهة العادة والعلوم المألوفة الشريفة والأحوال المذكورة — فاعلم .

ومن جملة خيراته العزيزة ذكره لك عند ذكرك له فى حضرتة مع أهله . ومن جملة فوائده الكريمة ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير ما قلتة أنا والنبیئون من قبلى : لا إله إلا الله » . ومن بعض فضائله كونه يَفْضُلُ الدعاء ويزيد خير المتصف به على خير المتصف بالدعاء . ومن نوره ونعمته قول الله تعالى : « فاذكرونى أذكركم^(٤) » — فجمع فى هذه الكلمة بين الأمر والجزاء والارتباط وشرف الحكمة والكرم المحض ، وأوجب على جلاله ما لا يجب عليه والقطع بالسعادة ، إذا حصل هذا الأمر بحسب ما ذكرناه ، لأنه إذا ذكره إنما يذكره مع السعداء فلا سبيل إلى شقاوته . وقد يتفسر هذا بقوله [٨٣] تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان^(٥) » — بوجه ما . ومن نوره وجلالة قدره قوله صلى الله عليه وسلم : « من قال الحمد لله رب العالمين فله ثلاثون حسنة » . وجميع ما جاء فى أم القرآن إنما هو لكونها احتوت على کلیات القرآن والأسماء المظهرية والمضمرة والمشتقة . ومن شرف الأحاديث الواردة فى الذاکر وما يعطاه ،

(١) الرضوان : الرضا . أى أن سعادتك فى رضا الله عنك .

(٢) بمعنى : تصون ، تحفظ .

(٣) الممكن : فى مقابل « الواجب » . والممكن متغير متقلب ، إذ هو ما يجوز أن يكون بخلاف ما هو كائن ؛ أما الواجب فثابت ، لأنه لا يمكن أن يكون بخلاف ما هو كائن .

(٤) سورة البقرة آية : ١٥٢

(٥) سورة الرحمن آية : ٦٠

وما جاء في ذكر اليوم والليلة والأحاديث المنقولة عنه عليه السلام في الذكر وأوقاته ومواطنه ، والظاهر منه والباطن ، والخفي والجلي ، وعدده وما جاء في أسمائه وفي ذكره بها وفي حفظها ، وما أعدَّ الله في ثوابها . وهو يسهل على الطباع مع كونه يَصْحَبُه الأنس ، ويكاد يمتد مع الأنفاس . والذاكر الصادق هو له كحياته ووجوده بقدر ما يُقدَّر له من العمر والأزمنة له في الذكر . وأما إذا وقع التحقيق في هذه المسئلة فإنه أكثر من الزمان المحسوب له ؛ فإنه بحسب نيته وخبره . فهو مع كل نفس يقول : « الله » « الله » ، ويعتقد فيه ألف ألف . فالله لا يضيع له ما يريده ، والكريم لا يُبتهم في أخلاقه . وأيضاً هو يذكره بلسانه ، وهو الذكر الذي قلنا فيه يمتد امتداده .

وأما ذكر قلبه فهو الذكر الذي لا يأخذه الحصر ، فإنه بالجوهر الذي لا يدخل تحت الزمان — فافهم . وأيضاً إذا ذكره العبد بذكره وبالشئ الذي بعلمه المحقق لا نظير له في الأعمال والفضائل . وكل فضيلة يتعب فيها ويطول أمرها ويحتاج في سلوكها إلى زمان ليس باليسير والكل دونه . ولو فرضناها فوقه في الوصف الواحد لكان هو بسرعه وما جعل فيه من الثواب يعطيها من صفة نفس وجوده في المكلف . مثال ذلك : إذا قدَّرنا الصلاة المفروضة صلاة العصر تفضل « لا إله إلا الله » الكلمة الواحدة أو الثلاث كلمات أو أكثر بكذا كذا حسنة أو نجعلها تزيد عليها مائة حسنة — لكان الذكر أجلاً ، فإنه يقول بطول يومه بل ببعضه ما يصح به إدراك المائة والمائة ألف . فكيف والأمر قد جاء في الذكر بأكثر من هذا ! فكيف والذكر هو الصورة المقومة والتممة لجميع الوظائف الشرعية ! ولا تصح وظيفة شرعية إلا به . ومن جملة بركاته : طهارة الوقت مما لا يصلح ، وإهمال السيئات ، وموافقة الملائكة ونور الله في ذلك الوقت وفي ذلك المحل من ذلك القلب ، وحفظ اللسان وسائر الجوارح على جهة

الموافقة والإلزام . ومن جملة فضائله التشبه^(١) بالله فإن الله يذكّر ويصحّ منه ذلك ويطلق عليه ، ولا يصحّ منه الفكر^(٢) . ومن فضيلته أنه معقول في القدم ، فإن الله تعالى كان يثنى على نفسه ويخبر عن جميع معلوماته . والفكر وسائر الأعمال حادثة إلا ما كان من هذا القبيل . ومن فضيلته أنه من أسماء كتاب الله عز وجل^(٣) . [٨٤] ومن فضيلته أنه المراد بالقرآن ، والقرآن كله هو الذكر الأعلى ، وهو أجلّ معجزات النبي صلى الله عليه وسلم فإنه صفة « ذات » الله عز وجل وما عداه من المعجزات صفة « فعل » الله ؛ وهو من المعجزات الباقية وغيره من المعجزات الزاهية بذهاب وقتها وهو معجزة كانت وبقيت . ومن فضائله أنه هو الذي يُطلب بعد الموت وفي المواضع الضيقة وفي وقت الخاتمة . ومن جملة جلالته أنه في الحيوان العاقل وغير العاقل :

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد^(٤)

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده^(٥) » . وأما من أثبت نطق الموجودات فأمره أعظم في حق الذكر ، وأما من أنكر ذلك (فقد) ألزم ذكر لسان الحال . ومن فضيلته ثبوته بعد الأعمال في الجنة ، وإن كان غيره من المقامات يثبت مثل ثبوته . ومن فضيلته كونه في كل مقام بالقوة لأنه يمشى ويتصل حيث تتصل النية لأنها هي القصد ، ومفهومه الخبر الصادق والعزم الثابت والتصديق الخالص . ونحن قد ذكرنا أنه ينقسم إلى ظاهر وباطن ، والكلام هو المعنى القائم بالنفس وهو الدائر في الخلد بحسب مذهب ما . وكل كلام هو لله أو من أجله أو يذكر

(١) لأن التصوف ، كالحكمة في تعريف أفلاطون لها في الكتب العربية ، هو « التشبه بالله بقدر الطاقة البشرية » .

(٢) أي الفكر المنطقي بمعنى استخدام التصورات والتصديقات في البراهين لإدراك المعقولات ، لأن علم الله بالأشياء مباشر عيان غير منطقي .

(٣) إشارة إلى الآية : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (سورة الحجر آية ٩) .

(٤) بيت شعر لأبي العتاهية (راجع ديوانه ، وراجع « الأغاني » ج ٤ ص ٣٥ س ١٨ . طبع دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٥٠)

(٥) سورة الإسراء آية : ٤٤

به أو بوظائفه فهو ذكر . وأيضاً إذ قلنا مقام التوبة : أين الذكر فيه ؟ قلنا التائب يدعو ربه : فقد ذكره بلسانه وقت نوافله وخلوته ، وبقلبه حيث يخبر عن عزمه على الفرار من العودة وإخباره عن الندم . وجملة هذا كله هو حال التضرع . فإن قُلْتَ : هذا مقام الدعاء غير مقام الذكر فلا يدخل أحدهما على الثاني . قلتُ له ^(١) : الدعاء هو الذكر إن لم يقرن مع الطلب ؛ فإذا حُرِّرَ القصدُ وجُردَ الغرض كان الذكر الأكبر . وإذا وقع الاشتراك ضُعِفَ الذكر . ومقام التوكل ذكر الله وذكر القلب مما فرغ منه ، فهو يذكر صفته أعنى علمه ، ويذكر قدره وقضائه أعنى إرادته ويذكر قدرته . ومقام الرضا يذكر فيه صاحب ذلك المقام حكمته وعدله وحبه في كل حال كان عليه ، وحينئذ يصح له مقامه . ومقام التوحيد يذكره في وحدته وفي كونه واحد الوحدة ، بالتصفح والتسبُّر والتقسيم ، تجد ذلك كما وجدته أنا . ومن فضيلته أنه يذكر بالعهد الأول ويظفر بالصدقية . ومن فضيلته أنه يتطور في القوى النفسانية . وهذا الذكر المحمود هو الذي يقع على ما يجب ويتعلق كما يجب ، لا الذي يصدر من غير المعتقد أو يُتوهم به الممنوع العقلي أو الشرعي . وإنما الذكر المراد هنا المحمود من كل الجهات ، وإن كان الذاكر من العلماء أو من المتوسطين أو دون ذلك — الخير فيه إذا تم على سداده من جهة معقوله . ومن فضائله غناية ربنا عز وجل بالمؤمنين بقوله « يأيها الذين آمنوا [١٥] اذكروا الله ذكراً كثيراً ^(٢) » . ومن فضائله كون رسول الله صلى الله عليه وسلم ذم آخر الزمان بعدم الذكر فيه ، بقوله : « لا تقوم الساعة على أحد يقول الله ! الله ! » ومن فضائله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتدقوا

(١) كذا ، والأصح : لك .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٤١

أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : بلى ! قال : ذكر الله — فهذا المختار قد اختاره لنا لأنه قال أرفع الأعمال . والعقل يختار الذي يختاره له المرشد . وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم صادقة ، وهو لا يخبر إلا عن الله . فالله قد أخبرنا بمثل ذلك . فأى دليل نطلب بعد نصيحة الله ورسوله ! وأى إرشاد أرشد من إرشاد الله ورسوله ! ثم فضله على الصدقة وعلى الجهاد وعلى الشهادة لأن الذى تضرب عنقه لا يعيش . وهذا إذا سلم من المشوش وحرز من الاعتراض لا شئ أظهر من فضله — فاعلم . ومن فضيلته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتكم برياض الجنة فارتعوا . فقليل له : ماريض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » . ومن فضيلته أنه لا يفوتك حتى فى المواضع الغير طاهرة ، فإنك مُنِعْتَ أن تذكر الله بلسانك فى موضع الحاجة ، وأمرت أن لا تغفل عن الله طرفة عين — فبقى لك ذكر القلب أو ذكره بالاسم المضممر كما جاء وقد جاء بالاسم الصريح . ومن فضيلته أنه يدفع البلاء عن العبد إذا طاف به فتعود رحمة الذكر عليه تحفظه ، وقد جعله الله للمؤمن الذكر غطاء كامنا وحرما آمنا . ومن فضيلته أنه يَنْقُلُ من الغيبة إلى الحضور ثم إلى المشاهدة . ومن فضيلته أنك إذا ذكرت الله حتى تنسى به كل شئ ألهمك الله به كل شئ ومَلَكَكَ كلَّ شئ صالح . ومن فضيلته أنه قياسك مع ربك فى المقابلة والمصاحبة والاعتباط وبقدر ما تجد نفسك فى الذكر ومع المذكور هو لك كذلك وأنت معه على هذا القياس — وقد جاء : « أنا عند ظن عبدى بى » — الحديث . ومن فضيلة الذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى : « أنا جليسٌ مَنْ ذكرنى » — فالمصلى ما هو جليس الله إلا من حيث ذكره فقط . ومن فضيلته أنك تذكره بوضوء وغير وضوء ، وطاهراً وغير طاهر ، وعلى جملة تصرفاتك : إن كنت واقفاً أو قاعداً أو راقداً أو على جنبك — فافهم . ومن فضيلته أنه يتقدم على أوقات الصلوات أعنى الفعل وهو فى وقتها ، الذى هو الامارة والسبب المظهر للحكم . وهو الذى لا يقنع بغيره من الوظائف فى دعوى الإسلام من الكافر وإن صام

وحج وجاهد ودفع زكاته حتى يُسمع يقول : « لا إله إلا الله » أو يبصر يصلى ، وما ذلك إلا لما يُعلم أنه يذكر الله فيها أو لكونها تتضمن الذكر ، فاعلم ذلك . ومن فضيلته كون الاسم الأعظم أجل المكاسب ، وهو ذكر الله المحمول على الماهية . ومن فضيلته كونه لا يتقيد بزمان بخلاف بعض العبادات ، وكل وظيفة^(١) شرعية يخصصها وقت ما [٨٦] كشهري رمضان مرة في السنة ، والحج مرة في العمر ، والزكاة في السنة ، والجهاد في وقت دون وقت وقد يجب ولا يجب ، والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة — والذكر مع الأنفاس ، ويثبت في دار الجزاء ، وينفع قبل الموت ، وفي حال الموت ، وفي القبر ، وفيما يُعدُّه ويُتَحَفُّ به الرجلُ الرجل والوالد الولد وبالعكس . ومن فضيلته ما جاء في الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى يقول : « أعطيتُ أُمَّتَكَ يا محمد ما لم أُعْطِ أحداً من الأمم » . فقال : « وما ذلك يا جبريل ؟ » قال : قوله تعالى « فاذكروني أذكركم^(٢) » — ولم يقل هذا لغير هذه الأمة . ومن فضيلته أن الملك يستأذن الذاكر في قبض روحه . ومن فضيلته ما جاء عن موسى عليه السلام أنه سأل ربه : « أين تسكن ؟ » فأوحى الله إليه : « في قلب عبدى المؤمن » — ومفهومه ثبوت الذكر وتحير اللب في الذي يجب ويجوز لله ويستحيل في حقه وكونه لا يسعه أن يذكره بأكثر من الذي يجب له ولا مثل الذي هو عليه — فتحقق أنه دون ذلك . فنقول : المَطْفَفُ^(٣) لا شئٌ يصح له ولا المقتصد ، والنصيب الصحيح في المقصِد . ومن فضيلته أنه بقدر ما يكون من الذاكر يستخدم الملائكة في غرس الأشجار . وقد جاء أن الله عز وجل قال : « يا ابن آدم ! ما أنصفتني : أذكرك وتنساني » . ومن فضيلته أن الحلاوة انحصرت فيه وفي قراءة القرآن وفي الصلاة كما جاء — وإذا نظرت إلى هذه الثلاثة تجدها مفهوم الذكر وهي هو . ومن

(١) ص : وضعية .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢

(٣) المطفف : الذي يبخل الشيء حقه .

فضيلته ما جاء في الرقاء^(١) وما يحفظ به من الدجال . ومن فضيلته أن النوع الواحد منه يشبه عبادة أهل الملكوت والعالم المفارق فإن تلك الذوات ذاكرة بالنوع المحمود وبذلك يفضل جميع الوظائف الشرعية ، فإن جميعها لا يطلق على تلك الذوات ، وإن أطلق على جهة التشبيه وذلك التشبه لا يتعلق إلا بالوضع والقصد لا أنه على المعنى من كل الجهات أو هو يقع على معقول الشبه المألوف . بل بالذي قلناه فقط . وقد نقل عن بعضهم أنه قال : « يقول الله عز وجل إذا كان الغالب على عبدى ذكركى عشقنى وعشقته » . ومن فضيلته أنه عند بعض أهل الحق إذا أهمل من أعظم سيئات المقرّين ، ولا شئٌ عندهم أعظم من إهمال ذكر الله .

ومن فضيلته أنه عنوان القلب ولسان الصدق ومعلول علة ذكر الله وفي بعض الكتب المنزلة : « واذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ، واذكرنى حين ترضى أذكرك حين أرضى ، وافرح بنصرتى لك فإنها خير من نصرتك لنفسك » . — وجد بعض الرهبان^(٢) وهو يستغيث فقيلاً له : « بماذا » ؟ فقال : « ذكرته وصمتُ بين الذكر بقدر ما يفوت فيه قدر ذلك ، وزمان الغفلة عن الله حرمان عظيم ، فإنى ببعض أحوالى محروم . وفى يومى هذا أعوذ بالله من هذا اليوم » . وقيل لراهب آخر : « أنت صائم ؟ » [٨٧] فقال : « أنا صائم بذكر الله ، فإذا ذكرت غير الله أفطرت » . ومن فضيلته أنه أنزل على موسى حكمةً فى يوم الثلاثاء وكلمةً يوم الخميس ، قال ذلك عنه صاحب^(٣) « دلالة الحائرين » . وقيل لبعض أئمة اليهود : « اعبد ربك ! » فقال : « قد فعلتُ ذلك فى وقتى هذا » . ثم قيل له فى ذلك ، فقال كذلك . فقيلاً له : « وأنت لك هذا !

(١) مصدر من رقى يرقى (بالكسر) رقيقاً (بضم الراء وفتحها وسكون الياء) ورقية : اسم عمل الرقية وى أن يستعان على جلب منفعة أو رفع مضرة بكلام أو عمل .

(٢) لاحظ نقل ابن سبعين هنا عن أخبار الرهبان ، مما يدل على اطلاعه على شئ من أحوالهم .

(٣) أى موسى بن ميمون الإسرائيلى .

أنت تباهت . فقال للقائل له : « أنا ذا كره ، وعادته معي يمكنني بالادراك من كل شيء حال ذكره » . وقيل لبعض الحكماء : « ما تفعل لو أنك تُحْمَل وتُجْعَل في جزيرة منقطعة وتفقد المؤانس وجميع الطيبات ؟ » قال : « تشبه بالعالم العلوي » . قيل له : « كيف تذكر ؟ » قال : « أذكر عيني وشيئي وظاهري ماهيتي ومعلومي الذي أبحث عنه الذي لا أول لوجوده ونجد الجميع ونتشبه فيه بأشرف الذوات » . قيل له : « وكيف يحصل لك ذلك ؟ » قال : « إذا أنا ذكرته استقامت نفسي على طريقة أهل الكمال وتذكرت واستجاب الأمر فيها ، وبذلك يحصل لها التعلق بعالمها فيعود الأمر من قوة الاستغراق إلى الحال الشبيهة بالنوم فتركذ الجوارح ويقع الكشف ، ولا شيء أجَل من هذا كله » .

ومن فضيلته تجديد اللذة في كل لحظة . ومن فضيلته أن لذته روحانية وهو مذكوره بأنموذج من جلال رجال الله . ومن فضيلته أنه يفعل في البدعي^(١) ويوجد في الكفار ، وإن كان الكافر يطلق الذكر على غير وجهه ولاغير الله — فالأمر إليه يرجع . ومن فضيلته أنه يوجد في الإقرار ، لأن الحكمة تشهد أنه إذا غضب المبطل في الحق أنصفه المضمار المفروض في الوجود ، وإن لم يقم بالمبطل قام بمাহية الوجود ويشهد له لسانها . ومن فضيلته أنه يتعلق بالكواكب وبجميع الصور والكواكب العلوية وبالمتحيرة^(٢) وبالقوة فينتفع به الذكر وإن كانت المنفعة غير معتبرة فشرف الذكر فيها ظاهر . ومن فضيلته أنه لا يصح من أحد إلا ووقته فيه محفوظ ، وإن قدرناه يموت فيموت في الوقت المختار المحمود وهو يذكر الله والله يذكره .

ومن فضيلته ما جاء عن جعفر الصادق رضي الله عنه الذي حكاه جابر بن

(١) أي المبتدع Hereje ، صاحب البدعة .

(٢) المتحيرة : الكواكب السيارة .

حيان^(١) أنه كان يتكلم في جميع العلوم عقيب الذكر . وسأل بعض الفلاسفة في يوم حضوره للناس بمحضر الجميع منهم فقال له : ما دليلك على أن للعالم فاعلاً مختاراً يختار حدوثه ؟ فقال : أرأيت لو أنا قدرنا لهذا الحدث الذي يختار ويدبر الأكوان وهو حكيم لا يفعل إلا الأولى ويتقن المصنوعات — أى شئ كان يظهر في هذا الوجود ؟ وهذا منى على صورة الفرض لا على أنه على صورة الدليل . قال له الفيلسوف : كان يفعل ما ينبغي ويتقن الأشياء ويضع كل شئ في محله . قال له جعفر الصادق فقد كان ذلك وما قدرته قد وقع . وجاء عنه — رضى الله عنه — أنه كان يوماً يذكر الله فجاءه بعض الناس فقال له : ما أقوى دليل على [٨٨] وجود الله الذى أنت ذاكره ؟ قال له : وجودى ، وذلك لأن وجودى حدث بعد أن لم يكن بل فاعل يمتنع أن يقال فاعل وجودى أنا ، لأنه لا يخلو إما أن يقال أحدثت نفسى حالماً كنت موجوداً أو حالماً كنت معدوماً ؛ فإن أحدثت نفسى حالماً كنت موجوداً فالموجود أى حالة له إلى الوجود ؟ ! وإن أحدثت نفسى حالماً كنت معدوماً فالمعدوم كيف يكون موجداً للموجود ! فدلّ على أن الذى أنا ذاكره هو الذى نشير إليه بالاشتقاق وهو الصانع الفاعل لوجودى ووجود غيرى ، عز وجل ، ظاهر لا بتأويل المباشرة ، باطن لا بتأويل المبادعة ، يسمع بغير آلة ، ويبصر بغير حدة ، لا تحده الصفات ولا تأخذه السّنات ، القديم وجوده ، والأبد أزله الذى أَيْنَ الأَيْن^(٢) لا يقال له : أين كان .

ومن فضيلته ما جاء عن بعض الملوك مع بعض الرجال : كان يذكر ربه ويحضّ الناس على ذكره . فقال له الملك : لمن أنت ذاكر ؟ فسكت عنه . فقال له :

(١) الصلة بين جابر بن حيان وجعفر الصادق مشهورة مذكورة — راجع « الفهرست » لابن النديم ، تحت اسم جابر بن حيان . وراجع :

Paul Kraus : *Jabir Ibn Hayyan*. Tome II, Le Caire, 1942

وراجع أيضاً كتابنا : « من تاريخ الإلهاد في الإسلام » ص ١٩١ — ١٩٧ القاهرة سنة ١٩٤٥

(٢) أى هو الذى خلق المكان ، فكيف يقال : أين هو .

« كَلِّمْنِي ! » قال : « أنا أفكّر في هذا البستان الذي كان خراباً ، ثم من بعد ذلك صار من أخصب المواضع ومن أرفعها وذلك من تلقاء نفسه » . قال له الملك : « أنت مجنون » . قال له : « بل أنت ذلك الذي ترتع في بستان وجود الله وتسأل عنه » . فأعطاه الجواب ، وكان يذكر فلم يقطع غيره ، والله يمدّه بالغيب الكريم . وقد حُكي عن علي عليه السلام وهو يذكر أنه قيل له : « هل تذكر مَنْ تبصر أو تعلم » ؟ فقال : « لَمْ أعبد ربّاً لم أره » . فقيل له : « كيف رأيته ؟ » فقال : « ما رأيته بمشاهدة العيان ، ولكن رؤية القلب بحقائق العرفان » . فقيل له : « صِفْ لنا هذا المذكور » . فقال : « إن ربي لطيف الرحمة ، كبير الكبرياء ، جليل الجلالة ؛ قبل كل شيء ليس له قبل ، وبعد كل شيء ليس له بعد ؛ ظاهر لا يتأويل المباشرة ، باطن لا يتأويل المباعدة ، يسمع بغير آلة ويبصر بغير حدقة ، لا تحدّه الصفات ولا تأخذه السننات ، القديم وجوده والأبد أزله . الذي أَيْنَ الأَيْنَ ، لا يقال له أين ؛ وكيف الكيف ، لا يقال له كيف » . هذا حكاة جابر بن حيان في « الهداية » ، وابن الخطيب^(١) في « المطالب العالية » . وحُكي مثل ذلك عن طيب كان يعرف الله ، وكان إذا ركب الأدوية يذكر الله وينفعل للذكر . فقيل له : ما الذي حملك على الذكر إذا ركبت الأدوية وتنفعل لذلك ؟ قال : أستعين بذكر الطيب على العلة ؛ وأيضاً أبصرت الإهليلج المجفف يُطأَق ، والأعاب المسك يلين — فعرفت أن الأمر آخر . وأيضاً ذكرته لأنني عرفت به بحيوان صغير وضع السم في أحد طرفيه والشفاء في طرفه الآخر وعنى به النَّحْل .

ومن فضيلة الذكر أن بعض الملوك — وقيل هو الموفق بالله — حَجَّ وكان قد حضر عنده جماعة من المنجمين . فاضمر لهم ذكر الله ، وقال لهم : أنتم تقولون إن الإنسان يضمّر في قلبه وتخبرونه بما أضمر ؟ قال له أحدهم : نعم يا أمير المؤمنين !

(١) ابن الخطيب : هو الفخر الرازي صاحب التفسير (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) .

فقال : قد أضمرت فهل من يكشف ذلك ؟ فتكلم كل واحد [٨٩] منهم فلم يُصِبْ . فقام أعظمهم — وهو أبو معشر^(١) والله أعلم — فقال : أضمرت ذكر الله ؟ فقال له صدقت . أخبرني كيف اطلعت على هذا . فقال : لأنك لما أضمرت أخذت ارتفاع الوقت فوجدت نقطة الرأس في وسط السماء ، ونقطة الرأس شيء لا ترى ذاته ويُرَى أثره وخيره ، ووسط السماء أرفع موضع في الفلك فعلمت أنك أضمرت ذكر موجود لا تُرى ذاته بل يُرى أثر خيره ورحمته ، وذلك الموجود هو أرفع الموجودات ، وليس هذا الموجود إلا الله تعالى .

ومن فضيلته أنه ينفع في سبع خواص من السيمياء ويفسد تسع خواص من السحر . ومن أراد استعمال قوى الكواكب بحسب صناعة أهل العلم الرياضي لا بد له من الذكر ، وذلك بعد الدستورية أعنى أن يكون الكوكب في بيته أو شرفه في الوند وينظر الكوكب إليه من بيته أو شرفه من الوند كالزُّهرة في الميزان في الطالع ، وزحل في الجدى أو في الميزان ، والمريخ في الجدى . واعلم أن الكوكب إذا كان في الحيز أو البرج أو الدستورية كان أظهر فعلا وأقوى تأثيراً ، ثم يعمد إلى اتخاذ الصورة والاسم والبخور والأفعال . مثال ذلك برج الثور : تستعمل صورة إذا كان في الوجه الثاني ، ويريد الحكيم أن يخدم أمره ، يتخذ صورة ثور مضروب الوسط ويناديه : « لهرلر » ، ويبخر بذهب الفأرة ويفعل الأمور المهلكة بإذن الله ؛ ويقول في جميع خدمته : يا حمر لايل ، يا دبر لايل ، يا جبر لايل . ومفهوم ذلك : يا مالك القوى السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية والذوات العارفة بك والتي فوقها ، يا نور النور .

فهذه من بعض فضائل الذكر عند من لا علم له بالمذكور . والله قد ربط عادته في تعظيم ذكره عند المؤمن والكافر ويكون الأمر من حيث الحق في غاية

(١) أي أبو معشر الفلكي المشهور ، صاحب كتاب « الألوف » الخ — راجع عنه القفطي : « أخبار الحكماء » (، القاهرة ، ص ١٠٦ وما يليها) ، « والفهرست » لابن النديم (ص ٣٨٦) ، « وطبقات الأمم » لصاعد الأندلسي (س ٨٩ ، طبعة القاهرة ؛ وص ١١٢ ترجمة بلاشير) .

التمام والحسن ، ومن حيث الذاكر الذى يذكره على غير ما هو به فى غاية النقص ، فإنه تعظيم ذكره ، ولا يستل عما يفعل ، وذلك لزيادة جلاله . وأكثر من ذلك ذكر الجواد له بلسان الاستحقاق .

وبلغنى عن الهنود أنهم إذا عزموا على وضع الهياكل لا بد لهم من أسماء يذكرونها وحينئذ يضعونها ، وتلك الأسماء : « واهِ بُدَّ الأبد الاوحدان هرشان أورھشان » . ومفهومه : « يا مَنْ مِنْ أَجَلِهِ أَحْرَقَ الطائِعَ بَشَرَتِهِ وتوجه لبعض مخلوقاته الشريفة ! أُنعم علينا بنسمة منك تسرى لنا وتفصل فى أحوال أرواحنا ، يا أصل كل شىء ولا أصل له ، يا بُدَّ مفهومه ، يا مَنْ يقوم به الأشياء وهو فى كل شىء بشيئته » .

والسودان إذا أرادوا أن يتخذوا الصور العجيبة يكتبون أسماء الله على وجوههم ، وتلك الأسماء موروثة عندهم ، وهى جملة : « ياشى فاشى يرجع شعشاع » — مفهومه : « مَنْ ذَكَرَ اللهَ فَرَّ مِنْهُ كلَّ عَدُوٍّ ، فَأَمَدُ اللهَ يَقْدِرُ ولا يُقْدِرُ عليه » .

والإفرنج لا يصح للبابة^(١) منهم المكانة حتى يذكر ربه [٩٠] بلسانه ثم بلاهوته : يذكره بلسانه حتى يغيب ، وبلاهوته حتى يصيبه شىء شبيه الجنون ، يذكر الله بالأقنومية وهى صفة ذاته وما أشبه ذلك وهذا كثير جداً . وكان سقراط يقول فى كل صباح : « أنا الدليل بالذات وأنت العزيز بالذات ، فلا تجعلنى بعزتك من الشَّعْداء بالعرض . يا مَنْ هو صورة كل شىء وقياس هذا العالم ووجوده القريب ، احجُبْنى عن كل ما يقطعنى عن كمالى » وكان يكثر قول : « أنت أنت أنت » — فقل له : ما هذا الكلام المهمل المبهم ؟ فقال : هو يحدثنى بما وجب له عندى وأنا أكلمه بما وجب له على . فان ذكرت نفسى نجدها قد استحقها فنقول : « أنت ليس » إلا وإن ذكرته هو تجده قد استجاب عندى

(١) أى البابا ، رأس الكنيسة الكاثوليكية = Pape .

وهو ماهية ما أنا عليه والعالم بسبيله فنقول أنت . قيل له فقل : « هو » — قال نُشعر بغير نحادثه على الخصوص . وكان أفلاطون يقول : « يأنور العالم ! يا سبب الكل ! يا مبدع المثل والتوابع ! كم ذا نتجرد ونعود إلى هذا الجسم ونرجع في عالم العقل إليه ! قوّني بحيث أثبت عندك ولا نعود ، فإن صرفتني إلى هذا الهيكل فاشغلي بك وألهمني بالرجوع إلى حالي التي انصرفت من حضرتها الشريفة . يا غاية العقل والعلم ، يا لذة الهمة يا أمل الحكمة ! » وكان أرسطو ، يقول : « يا علة العلل ، يا أزل الأزل ، يا سبب^(١) أول ، يا واهب العقل ! قني نارك . يا من تكرم علينا بالوجود ، لا تهمل نفوسنا في عالم الطبيعة وخصصنا في حضرة الجود » . — وبلغني أن الهرامسة^(٢) كانوا يقسمون نهارهم وليلهم إلى زمان الذكر ، وزمان معرفة مدلوله بينهم ، وزمان اختيار ذكرهم وتحقيق حقيقة قبول المذكور عليهم بوارد طارق أو حال خارق أو إشارة في الـكون أو ملك مخاطب أو زيادة رحمة أو خير مُكتسب .

ولكل نبي دعوة ، ولتلك الدعوة ذكر خاص . وساعات الأنبياء لا يمكن فيها المناجاة ، لأن اللطائف إذا تواردت على الحل لا يسع العارف إلا الذكر . وبلغني أن آدم عليه السلام كان يقول : « اللهم أرخني بجنتك التي لا يتوقف فيها ذكرك ، ولا نفقد فيها ذاتك . يا مَنْ أسجد الملائكة لعبده وهو يعلم منه أنه يعصيه بعد ذلك . يا مَنْ كرمه لا يتوقف على الجزاء والمسئلة ، ولا يستند إلى ما يقل ويكثر . يا واسع الخير ! يا رحمن ، يا حلیم ، يا الله ! » وكان إدريس عليه السلام يقول : « علمت أنك العليُّ الكبير الشأن ، المنعمُ على كل ذات حادثة ، العالم بكل الكائنات ، الذي له الملك والحمد . فأنعم عليّ بما علمتني ، وخلّصني من ملاحظة غيرك يا ذا الملك والسلطان » . وكان نوح عليه السلام يقول : « اللهم أنعم

(١) كذا ، وصوابه يا سبباً أول .

(٢) راجع عن الهرامسة وصورة هرمس في الفكر العربي — كتابنا : « الإنسانية والوجودية في الفكر العربي » ص ١٦١ — ١٩٧ القاهرة سنة ١٩٤٧ .

على بالصبر حتى نفرح في الدنيا والآخرة بدعوة الحق . يا حق ، يا مدبر الخلق ،
ولو في رجل واحد . يا الله ، يا الله ، يارب ، يارب . « وكان يقول في السفينة
بحسب ما نقل : « اللهم سلم وأنعم علينا بالعافية ، وادفع [٩١] عنا غضبك : لا طاقة
لنا عليه ، وانظر بعين رضوانك إلينا يارحيم يارءوف ! » . وكان يقول بعد
سلامته : « يا وهَّاب ، يا محسن ^(١) للمذنبين ! ثبتنا على طاعتك ولا تهملنا وعافنا » .
وقال عند موته : « سُبْحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت » . وكان إبراهيم الخليل عليه
السلام يقول : « اللهم بحق كلمات الصحف آسنى بك وبلغنى غاياتى فى جوارك ،
وارحمنى بحضرة رضوانك ، واجعلنى فى الأرض أسوةً صادقاً يجذب عبادك إلى رحمتك ،
وحدثنى فى سرى بما تكشف به عن ملكوت السموات والأرض ، واجعل
ذريتى صالحاً » . — والذبيح ^(٢) عليه السلام كان فداؤه ذكر ربه فى قلبه بصفة
الرضا . ويعقوب عليه السلام قسم ذكره لربه وحبه ليوسف ، فكان عذاب باطنه
لأجل المساواة . وكذلك يوسف : طال أمره لكونه ذكر غير مذكور فغار
الحق على ذكره له ، ولكونه وقعت فيه المشاركة . وهذا فى حق يوسف عليه
السلام مما يحمد لأنه عاتبه على المباح فدلَّ على أنه اصطفاه . والكلام عليهما
يطول ذكره لا أنه من قبيل القصص المذكور الذى تعظمه العامة ، بل من
قبيل التحقيق الذى تعظمه الخاصة — وكان موسى عليه السلام يقول : « نذكرك
فى القلب مرة ثم نبصرك به فأنعم علىَّ بالنظر إلى وجهك ، كما أنعمت على
المذنبين من عبادك » . وما ذاك إلا أنه غاب ذكره فى بصره فأبصر الحق
بالحق ، وطلب ذلك من جميع الجهات . وكان هارون عليه السلام يقول :
« اللهم أرِّحْ عبادك ، ومَهِّدْ بلادك » . وكان عليه السلام يقول : « ذكر الله
شريعة القلوب ونصيبها من نور الله . اللهم طَهِّرْ قلوبنا بذكرك حتى نذكرك بما

(١) كذا ، وصوابه : يا محسناً .

(٢) أى إسحاق ، أو إسماعيل بحسب اختلاف الرأى فى ذلك بين المسلمين ، وإن كانت الثابت
من التوراة أنه إسحاق .

تجبه كما تجبه . وفي التوراة : ذكرى رحمة للعباد لا يصد معها عذابي . فأوحى الله إلى موسى عليه السلام : « اذكُرْنِي فَإِنَّ بَذْرَكَ لِي كَلِمَتِكَ ، وبه ترانى وأنا مع الذاكرين » . فقال موسى : « ياربِّ انعمت فتتمَّ لِي ؛ ما ليس لك فإنه مثلك وليس لك مثْلُ نفسك » . فأوحى الله إليه : من استند إلى كَفَيْتُهُ ، وَمَنْ ذَكَرْنِي فَقَدْ بَلَغَ إِلَى حَضْرَتِي » . وكان داود عليه السلام يقول : « الحمد لله على حمده وعلى ما بعده » فأوحى الله إليه : « ياداود ! احمدي وزد في حمدي ! » فقال : « يارب ! وهل يستطيع أحد على حمدك ، فإنما حمدك نعمة من النعم » . فأوحى الله إليه : « علمت ذلك فقد حمدتني » . وفي الزبور : « ياداود ! أنا عند ظن عبدي فليظنَّ بِي خيراً » . ومعناه : أنا بحسب ما يخبر عني ويذكرني . وفي الزبور : « ياداود ! أنا بَدْءُ اللازم فالزم بذك » . ومفهومه : أخبر عن واجبه فيك وعن استحقاقه لك — وهذا هو ذكر القلب . وذكر بعض أهل التحقيق أنه كان إذا أراد أن يفعل الأمور العجيبة يتكلم بكلام غريب وبحروف مقطعة فيفعل الأمور الغريبة صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين . وسليمان — عليه السلام — فعل بالذكر والاسم والخاتم [٩٢] سمعت ، ودعوته كلها ذكر . وبه علم منطق الطير والذكر المشترك والنطق العام المقول على كل موجود بل على كل معدوم بوجه ما . وبلغني أنه كان إذا غزم على الحركة ويريد تصرف الذوات التي حصرها عالم الكون يتكلم بكلام خفي ويستدعي الجميع أسرع من الطيف . وأفاد ذلك لبعض خدامه ، فكان يفعل ، حتى كاد أن يفعل فيه . وكان يذكر حتى يفعل في الموجودات ويظهر فيها العجائب . وكان في خاتمه ، مكتوب : من علم الله ، علمه الله عِلْمَ ما لم يعلم ، ومَلِكُه ناصية كل ملك وخُلَصْ مُلْكُه ، وجمع له بين مُلْك الدنيا ونعيم الآخرة . ومن ذكره بحسب علمه زاد له من ذلك وأَيَّدَه بروح منه . وذكر الله هو الروح الحافظ . ومات زكرياء عليه السلام وهو يقول : « الحمد لله الذي جعلني من عباده الصالحين » . وفي الإنجيل : « لا خَيْرَ في عبد لا يذكرني . » — ولا يدخل الجنة من ذكر غير الله أكثر من الله ؛ فكيف !

وفي الحديث الصحيح : « ما من ساعة تمر على العبد لا يذكر الله فيها ، إلا وكانت عليه حسرة يوم القيامة وإن دخل الجنة » . وذبح يحيى عليه السلام وهو يقول : « مولاي ! رحمتي بالقرب منك فارحمني بجميل اللقاء » . — وذكر الله جنة لا تصيب بها مصيبة لمن يخص بها . وفي الإنجيل : « يا عيسى ! اذكرني كما يذكر الولدُ والده » وفيه : « نسمة المؤمن محل الذكر ، ومحل الذكر حضرتي » . وفيه : « الحكمة الصادقة ذكر الله مع أهله وفي وقت الغفلة بين الغافلين » . وكان لقمان يقول لابنه : « لا تطلب الحكمة في بطون الأوراق ، ولا تسمعها من الألسنة ، ولكن انظر الصنعة واذكر الصانع يُرشِدُكَ لكل شيء » . وأصحاب المسيح عبادتهم الذكر والسياسة والتجرد والصوم واستماع الهوائف والطوائف والبوارق ، وهي الآن سنة الرهبان .

وإذا ذكر الله وقع الجلال في الضمائر واهتزت الأرض بالكُنه اللازم لها والمملكة الواجبة في الأشياء الظاهرة بها . وقد جاء في الحديث الصحيح أن المؤذن ما يمر أذانه على رطب أو يابس إلا شهد له بالإيمان يوم القيامة . وقد قيل في قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » : إنه الذكر في مواطن التعبد ؛ وقد قيل : هي العبادة . وكيفما كان الأمر ، الذكر لا يفوت أمره ، كان بسيطاً أو مركباً .

وأما نبينا عليه السلام فقد بدأت به وبكتاب الله تعالى ؛ وقد جاء في ذلك من الأحاديث ما لا يحصى عددها . وكان الصديق رضي الله عنه يذكر في نفسه ويقول : « أسمع من أناجي » . وعمر رضي الله عنه كان يذكر بالجمهور ويُحاربُ عدو الله الشيطان . وعثمان رضي الله عنه كان يقوم الليل كله بالقرآن ، وهو الذكر من جهة الاسم والمدلول والجميع . وعلى عليه السلام خطبته معروفة وذكره لا يمكن أحداً^(١) أن يستريب فيه . والسلف [٩٣] الصالح كذلك كلهم ورجال

(١) ص : أحد .

الرسالة الذكر عندهم مقامٌ كريمٌ . وهو لا يترك في السلوك ولا في الوصول لأن كل واحد من الواصلين يذكر ما هو بسبيله ولو بالقلب ولو بالذكور ولو بإخباره عن قطعه ، ولو بالوقف . وبالجملة لا بد من الذكر ، وهو يتقدم ويتأخر ويقارن المقامات والذات والأحوال والجميع . وأويس^(١) رضى الله عنه كان مقامه الذكر المفرط والبكاء ، وكان فكره يتأخر عن ذكره ومات وهو مُقَدِّمٌ اسْوَةً لأهل الطريق ، وذكره فكره معا فافهم !

ومن فضيله كونه فرضاً عليك : مفرداً ، ومركباً : تارة وحده وتارة بإضافته إلى عبادة أخرى . وهو أول ما تستفتح به الرسل لعباد الله . وأما الحدث فينقل فيه الوجوب والندب . والفقيه يوجهه عند تذكر النعم وفي الصلوات المكتوبة ومن حيث المسلم ، ويحمده إذا أفرط وإن استغرق فيه الوقت كما يجب . وهو عنوان السعادة عند الموت . وهو الأول في الدين ، والآخر من أول ما يطلب المكلف به ، وعند الموت . وهو ظاهر في اللسان ، وباطن في الجنان . فقد ظهرت فضيلته في صناعة الحديث والقياس وفي الأحوال ، فإنها تكشف فضله وتحض عليه وتجزئ إليه . وبالجملة ، فضله في العقل والنقل والإجماع والقياس لا يخفى إلا على مجنون أو محروم أو مُباهت أو بطّال أو جاهل — وأعوذ بالله من هذه الأوصاف . وكذلك وجوه التصوف : أما الأول فيقول^(٢) : الذكر يحفظ نظام الأحوال وينشط القصد ويحرره ويُنَوِّع اللذات الباطنة . والثاني يحمده فإنه يصرف الوهم إلى مرتبة التقدير ويقطعه بانقطاعه هو ولا ينقطع إلا في المذكور ، والمذكور هو المقصود ، والمقصود لا وَهْمَ فيه . والثالث يحضُّ على متعلقاته بحسب محل ، ومن جهة وجهة . والذكر الجوهرى يجده في تطوره في جوهره المنتظر ، وكان ينتظر به جلالةً مجهولةً في تحقيقه ، ويسوقها هو . ولولا التطويلُ كنت أذكر ماهيته

(١) أى أويس القرنى ، راجع عنه : « الكواكب الدرية » للمناوى ج ١ ص ٧٩ (القاهرة سنة

١٩٣٨) ؛ أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ١٦٢ ؛ الشمرانى : « الطبقات الكبرى » ج ١ ص ٢٤

(٢) ص : يقول .

بحسب الوجوه والمراتب التي فوقها ، وما بعد ذلك . ولكنني راعيت الكلام على مكانه وفوائده ومقاييسه واستعماله كيف يكون ، ومع من ، وفي أى وقت ، وبماذا ، وكيف ماذا ، وأين ، وما غايته ، وما نسبته ، وما حكمته في الثناء عليه والحث على استعماله واتخاذ ، وإن كان الكلام المتقدم فيه الكفاية . وأيضاً وصلته للوجه الثالث : فإنه فوقه بوجه أكمل يعسر تصويره على الجاهل فيعود بوجه أنقص عنده ، فاعلم ذلك . وأيضاً إذا وصل الكلام لفص التحقيق يتجرد الاصطلاح الغريب ويفرّ الذكر من قلب الذاكر ويُطَبَّعُ على قلبه ، ويفر الذاكر فرار الشيطان أمام الذكر في العرف الأول ، لأن الكذب لا يجوز على الله ولا مع الله ، ولا شئ أ كذب من لسان الإضافة ولا شَرَك أَقْبَحُ من شركها . لكنه يقام له قوة إلهية فيعود فيفعل كفعل الذاكر . لكن لا يُعتبر في ذلك الذكر إلا الله [٩٤] وَبُدُّ البُدُّ وهو هو الموهو ، وإن كان الذكر يكون الكُنْه البسيط الساذج الذى يفرض تعظيمه بوهم المقال وحرص المذَكِّر فنقطع ذلك .

ونعود إلى الأصل الأول ، فنقول : إذا أردت أن تذكر فعليك بطهارة محلّك الجسماني والروحاني والأمل الواقع فيهما والمفهوم منهما والصادر عنهما وجميع اللواحق حتى التي ترجى أو تقدّر أو يُخْبَر عنها وتستعد للأنس فقط وتكثّف الذات ولو بالخير الكاشف المقرر على نكتة السكينة ؛ هذا إذا أردت الأعلى ، وإلا فأى شئ كان منه الخير فيه بالذات . — ويستحب للمحل أن يكون فارغاً من الطعام إلا أن يكون الذاكر من العارفين ، وهو الذى ذكره إخباره عنه أعنى القريب في الكلام فله أن يذكر كيف شاء ، وينظر الأشياء التي كان يذكر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد يجب للهمة أن تجمع أسماء ذات الذاكر المذكور وأسماء صفاته وأفعاله وتعظيمه وتقديسه والكلمة الصادقة بالاعتقادات السبعة ، وهي كلمة : « لا إله إلا الله » . فإذا وجدت النفس الأنس بالصيغ ، اصبر عليها حتى تجد الأنس بالمدلول . ثم اصبر عليها حتى تجد الأنس بما يجب له . ثم اصبر عليها حتى تجد الأنس بها في النفس والحال ، لا في الاعتقادات والخبر .

فإن لم تجد إلا الصيغ حَضَّ الذَّاكِر على الخلوة واجعله يقرأ سورة « الواقعة »
 ويستحب له أن يقطع الصوت الحسن الذي لا ينشط إلا به ، فإنه يحجبه عن
 مطلوبه ؛ ويسمع بأذنه وبالإيقاع فقط وأعوذ بالله من هذا ، وإن كان يسمع بالجميع
 فلا بأس به أو يكون من العارفين وبحسب ما ذكرناه فترجع ، فنقول : إذا
 وجد ذلك — انقله — يقول ويعتقد أنه لا فاعل إلا الله . فإذا وجد الدلالة
 يبتدىء في مظهره بالدليل قبل المدلول وتقع المساواة — انقله — يقول ويعتقد
 أنه لا حي إلا الله . فإذا وجد الاجتماع يحكي معتقده والجمع يشهد على ماهية
 تعليله وتصويره ويحصره حصراً لدائرة لما تحويه وينفعل مع ذلك لهيئة ذاته
 وضعف مرض عافته قد أخذ في الانحطاط — انقله — يقول ويعتقد أنه لا
 موجود إلا الله . فإذا أبصرت الآتية هي الهوية ، والمعلوم هو العالم ، والميت
 هو الحي ، والظاهر هو الباطن — لا من جهة الدليل ولا هو من قبيل أنا هو
 وأنا الله وما أشبه ذلك — فوض أمره إلى الله إلا إن كنت صاحب اسم
 فأنسه وبلغه الأمانة الثانية ، والله هو المدبر فإن الذَّاكِر حقيقة هو المذكور .
 ذكر آخر . واذكر باللسان وافهم بالجنان ، ثم اذكر بالجنان وحرك اللسان ،
 ثم اذكر بالقلب والرب ، ثم اذكر بحقيقة القلب حيث هو الرب ثم لا بالرب ،
 ثم اذكر بالرب ثم لا بهذا ولا بهذا ، فإن السبب عند الله ينقطع بالله والله
 لا يذكر نفسه وذلك الذكر غيره أعني غير المذكور ولا يذكر عبده وهو هو ،
 ولا يسع في الوجود الخلو عنه مع امتناع [٩٥] ذلك هيئة ما به . ولكن
 هنا دقيقة إذا قلت الله ولا شيء معه ولك حالة ما غريبة الهيئة هي تلك ،
 والذكر هو المامية الشعور بها وهي القضية التي لا تنتقل وتستقل ولا تكون
 بحيث يرد عليها العالم والكاشف والحاضر والغائب فأبشِرْ فإنك الاسم الصحيح
 والخليل الخاص من حيث أوهامك وسلبها ذلك والمطلوب الجميع . وهنا يصل
 بعض الناس بمن يتوهم أنه وصل ويقطع بالوصول ويهجر الواصلين ، بمعنى أنه
 قد لا يستقل ، واستغنى ، فيتلف وينقلب من دار مولاه حيث أراد الحلول

فيها بعد طول المدة . وذلك أنه وصل إلى آنية^(١) بسيطة لا يمكنه أن يسع من غيرها ويجد القلق في ضميره من الأغيار^(٢) ثم ينصرف إلى معناه الساكن فيجد الممد والمأحى للأغيار ويحصر ذلك كله على الوهم وعلى ملك الخيال ويستند إلى مواجهه ويطلق التوحيد المحض العام الذي يشوبه شيء ويصرف الأشياء إليه : وينظر الناس بعين الرحمة ، فليته ينظر نفسه بعين الإنصاف ساعة ويرجع البصر كرتين ويغوص في جلال الذكر . فهو الذكر الأعلى الذي لا تنطبق الآنية إلا على مظاهره ولا يطلقها على جهة المطابقة إلا هو .

ذكر آخر : الذكر مشاهدة إذا كان من الضمير الأعلى بمعنى أنه يستجيب فيه المذكور أى المدرك والمشعور به .

ذكر آخر : بل بحر تجرى سفينته تحت موجه ، وجواهره فوق أوجه . إن كان الذكر يحمل إلى الله فقد كفر الذاكر بإجماع أهل الذكر الخاص ، وإن كان يحجبه عنه فالأمر أضر ، وإن كان لا يحمل ولا يمنع فهو الوهم الأول الذي لا يذكره العارف . وإن كان هو الفكر — بمعنى أنه لا يذكر إلا من يعلمه ويطلق القول عليه كالقول على القوة الوهمية والخيالية والمفكرة والذاكرة وكيف يطلق جميعها بحسب المواضع وكونها واحدة بالموضوع وكثيرة بالانفعالات والتغيرات والاستعدادات — فالذاكر من الأشقياء . وإن كان الذكر ذكر العابدين ، فالذاكر من أعداء الله المحبين . وإن كان الذكر ذكر العلماء ، فالذاكر من الغافلين . وإن كان الذكر بالعرض الخلق فالذاكر لم يتميز فضله من الحيوان غير الناطق . وإن كان الذكر بالجراحة ، فالذاكر من عباد الله البله ، نعم ! وقلبه يجد حلاوته . وإن كان الذكر يُطلب به الثواب ، فالذاكر من الأشقياء عند الصوفية . وإن كان الذكر لكي يحضر به الذاكر ، فالذاكر محروم النصيب .

(١) آنية = eivai = وجود .

(٢) جمع : غير .

وإن كان الذكر لغائب فالذاكر من أرذل الكفار . وإن كان الذكر يُصلح الوقت ، فالذاكر ممقوت . وإن كان الذكر يُهيج حال الذاكر فالذاكر برى عن الله . وإنما الذكر نُكْتَةٌ إن وجدت كانت وكان الكل ، وإن استدعيت لم تكن ولم يصح البعض . ومن كان ذاكرًا بالوجه الشرعى واستقام على ذلك ولا يطبقه على مقام يطلب به المرتبة المشار إليها من فصّ الهوية ويتأدب مع الرجال في مواجيدهم ، سَلِمَ حاله . وهذه الاعتراضات [٩٦] هى بالنظر إلى الأعلى والأولى فقط فلا يتوهم غير هذا . وبيعض هذا ظفر بعض أصحابنا وتوهم أنه وصل وانتكس قَصْدُهُ وَضَعُفَ سيره ولم يصح له إلا خطبة وهم مُهلكة فنفتته الغاية لكونها غالطة في نيل الغاية . وشرح حاله هو أن الرجل نظر بَعْضَ نظرٍ ولم يحصل ، فإنه لو حصل عرف ما بعد الأجسام وما بعد المفارقات ، مثل عالم الوحدة والمسائل العويصة ؛ ولا هو كان من حيث الصوفية من كل الجهات بل أخذ البعض الذى لا يتم من كل نوع من ذلك وكأنه وجد الآنية مهمة الشعور والإدراك ، وسلم الجلال للجليل ، وافترقت الأغيار لوجوده ، وعى بالنظر إلى ذواتها ماهية فقط لا أنها وجود ، ولا هى به بالوجه الذى لا يصح معه الكفر البين ، ولا يمكن معه وَخْذَةُ الوجود الحمود عند الصوفية ، وقامت معه المعية المتداخلة الخفية التى يتوهمها جميع مَنْ لم تحذقه علوم التحقيق التى هى أعز من الأمر المرتكن والمربوط والمستند والحال والملتحم . وهى عنده أجلُّ من أن تكون كمعية المكان من حيث الفاعل ، لا المعية التى يأخذها قسطها من المساحة وكذلك معية الزمان جازها ومعية المرتبة ومعية أخرى وهى عنده معية التقويم والتتيم والإلزام والمصاحبة المدبرة . — فإن صح أن يقال فى الحق إنه الوجود بذاته عنده الذى عرض للماهية فهو ذلك أو شبيه به . — وتلك المعية تشبه الارتباط وينحلُّ الشئ إليها بالاستحقاق وكأنها بوجه ما عنده مُقَدِّمَةٌ وبآخر قياس ، وبثالث نتيجة . وهو يتوهم أنه يجدها لا من جهة النظر فإنه حيث نظر انتقل من تأمله فيها ، وقد تكون عنده من قبيل الأحوال ، ويطلبها مع الغير بالوجه

الذى لا يطلبها في ضميره — وهو مع هذا يجب أن ينسب إليه أنه يعلم . ولما كانت عنده من قبيل الأمور التي يلحقها الذهن كما يلحق الحس الصورة غلط ضميره حتى حمّله أن يسكن في جهوده ويشخص في الصورة الخارجة . ويحمّله ذلك الشخص إلى الشعور به داخل الذهن ، فيتذكر الماهية والوجود العارض لها وينظر ذلك في نوازل الهياكل المنتصبة والمظاهر المتصرفة . وفي هذا يظهر على المحل لذة ما وبهجة وسرور فتصيبه سكينه وقوة يقطع بها وينكر كلّ طريق يغيرها . وبعد هذا كله خآصه الله من شرك شبهته المستطرفة عنده التي يتوهم أنها عناية الله به .

ذكر آخر ، بل بحر آخر ساحله في وسط : لا يصح الذكر إلا للرجال الكمل إذا كان على ما يجب ولكل أحد فيه قوة ودولة بقدر طاقته . والنافع للشيخ أن يذكر ذكر التدبير لأصحابه ، وهو أن يختار لهم الأوقات الحالية إذا أراد بالذكر الحضور النفساني ، أو في وقت البطالة إذا أراد أن يجمع أصحابه على الله ، أو في وقت الخوف إذا دبّرهم بالسلوك المتصل . وعلى التلميذ [٩٧] أن يذكر الله سبحانه بذكر شيخه ويستغرق في مشاهدته فيذكره عند ذلك به فيجد ما يحده الشيخ . والصوت الحسن مما يصلح به . وعلى الشيخ أن يتكلم في المواجيد إذا علمها من القوانين ، وينوّع الكلمة إذا أبصر الضمير يقف ، وينتقل إلى النبي إذا استقام الذكر في الله لكي تصلح بركته الأعراض . وإذا ذكر التلميذ الله وتوسّل إلى الله في فائدة الذكر القربية بشيخه وبما هو عليه من التوجه جعل الله الشيخ له مرآة قصيده ، ينظر فيها ما شاء . ثم يستقيم في ذلك حتى يبصر المظهر الدالّ عليه قد انصرف ويجده من جهة توجهه إليه . وبذلك يحق له الوصول إلى حضرة الصدق ، ويدخل في عباد الله المقربين ويفرح بنفسه .

ذكر آخر . حجة إنابة وتنمية وسيرة جميلة وعلم النكتة ، وبحث عن الإحاطة والكلمة الجامعة المانعة ووجود ما خارج الذهن وداخله في مدلول الذكر وكأنه يحكيه في نفسه ، وتحصيل الدليل الصادر عن الماهية . ثم يقول عند اهتمامه

بمقدار انبعائه له : « لا إله إلا الله ، حم لا واجب الوجود إلا واحد ، ألم ، لا موجود آنيته هويته إلا الأزل كهيص » . ثم يقول : « الله الله الله » . ثم يذكره بفكره ، ويحرر القول ، ويحقق العزم ، وينصرف إلى ملاحظة الذهن لقضية الحال ولاستنادها إلى مواطن التطلع ويسكن وينبه الوهم العزيز الذي موضوعه الخلد الموجه المتوجه ويصير على انسلاخه ، ويتجرد عن القوى الروحانية . ثم يفعل ذلك مرة أخرى ويفرغ من قلبه خبر العالم الفلكي والطبيعي والروحاني والمثل المتوهم في الكليات المعبرة في الوجود المنتسب . فإذا عطس أنف استرواحه بريح المواهب الماحية للحد المقيمة في المطلع ووجد ذكره في ذاته المستطيرة ، كان نحو الصواب . ثم يفعل مرة ثالثة بمعرفة تحصل المواقف وبحسب حكم الواقف من ذلك ما ذلك حتى يستريح الوهم وتفرغ النفس ويتقدس بمجاورة الحل المكمل المقدس والعقل بما فوقه بالنظر إليه إذا تحكم بالمطالب الأصلية . والتعليل لا حكم له ، ولا يحتاج ؛ وقصاراه قبول كالات وأدب في ذلك ، وحكم بأن ما هو بسبيله يفارق ما كان عليه ، لا أنه أهمل القواعد من كل الجهات بل من جهة وجهة . وإن عجز عن الحكم وترتيب المقدمات ، فما عجز عن قبول ما يجب ، وأن هذا المقبول هو من الغرابة والجلالة بحيث لا يدخل تحت الأمور المعروفة .

ذكر آخر : اذكر في نفسك أنه قد ذكرك ، ثم اذكر ، ويكون ذكرك من مراقبة علمية ومقام الإيمان وذكرك مشترك . ثم اذكره من مقام الإحسان ومراقبة قلبية وذكرك في آخر المشترك ثم اذكره . وذكرك من حيث ذكره والذي كنت تعلم قد كان أن يكون مشهوراً وأنت تراه يتشخص في مدرك الهية الحركة للضمير الفاعلة في النفس . وتقرر الملاحظة وكأنك تحدثه ، ثم تفرط في ذلك حتى تجد ما يكاد أن يكف [٩٨] الذكر للأدب الذي يجده مجالس الملك إذ جالسه . وأيضاً مشاهدته فيها الكفاية . ثم تجلّد على الذكر حتى تبعد المشاهدة المنسوبة . وينعكس ذكره لأنه حالها وأنها غيب الذاكر ، حتى نسي

أمره فلما أفاق وجد الذكر وسبب المشاهدة فيه أقوى من الأول . ثم اذكر بعد هذا الذكر حتى تجد مطلوبك أقرب من الأول والأمر أتم وأعظم وفوائده أجل وغيبته أقل . ثم اذكر حتى تغيب قليلاً وتحضر كثيراً . ثم اذكر حتى تغيب فيه وتحضر عنده . ثم اذكر حتى تحضر ولا تغيب . ثم اذكر حتى يعود الذكر في المحل دون قصد وإرادة ، والقصد والإرادة في التنزيه ومشاهدة الجلالة وأنت تعلم وتسمع . وهنا هي نهاية الذكر . وبعد هذه المواطن يحرم الذكر على الخاصة لأنه من الأفعال المسببة . فإذا وقع الميل ويُخاف على المطلوب المحصل أن يفوت حبة السبب — قطع السبب ويبقى الطالب الذاكر مع الفائدة فقط . غير أن هذا الذاكر إذا كان في هذه المرتبة وظفر بهذه المنزلة وكان أمره في الوقت المطلوب على حالة من الأدب المأمور به ، وكما يجب — فذكره محفوظ . وإن كان على غير ذلك مع كونه في فترة يظهر عليه علل مجنون التوحيد المخادع للضعفاء — فالذاكر مخدوع . وإن لم يظهر عليه في هذا الزمان المطلوب به شرعاً المراد الشرعى على كماله وهو مع هذا في غيبة من ذلك القليل فقيه بين الأولياء خلاف وليس باليسير : منهم من يسلم له لأنه غير مكلف ، ومنهم من يمتقته فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم عنه هذا . وإن كان الأمر مثل هذا والمحل تجرى عليه الأحكام والهمة والإدراك والنفس في عالمها الكريم تركب كانت المكانة الموروثة على الخصوص .

ذكر آخر : من ذكره به ذكره عهده القديم ؛ ومن ذكره فقط وهو بسيط الخبر المتقدم جذبه إليه ؛ ومن ذكره وذاكره يتأنس به دله عليه .

ذكر المقامات والأحوال

في مفهوم الذكر وأحكامها في الذاكر : إذا ذكره التائب وأخذ نفسه بالذكر المستقيم لعظمة ما يجد من النشاط ولما هو بسبيله من أنس الذكر يتذكر شره

الأول ؛ وبركة الذكر يقوى غزمه على الأفعال الجسيمة والخروج من المذمومة ويسهل عليه رد المظالم . فإن لم يجد وإلا بالذكر تعظم الذمة فهو يعطيه إما الخلق مع الاستطاعة فيعطى ما أخذ ، ويكف عن الذى فعل ويحرض النفس على الخير . وإما يفسح له ثوابه المجتمع له السهل الكثير ، فيعطى ويبقى له . وهو رحمة سترها الله عن الأشرار وكشفها لهم بعد ذلك ، وكشفها للأخيار وسترها عنهم به عند ذلك إذا ظهر ذلك وكان من هو من ذلك ذلك أو بذلك فى ذلك .

ثم هذا التائب الذاكر ينقله ذكره إلى الأوبة ويكشف له عن أنواع التوبة السبعينية . وقد يمن الله عليه ويعصمه من التوبة فى التلويح أو يتحف بمفهوم التوبة من التوبة . وقد يكون المرید مراداً بالذكر بعد توبته [٩٩] ويفتح له فى الوقت اليسير ما يفتح لغيره فى الطويل . والمراد على ضربين : مراداً بسبب وهو الذكر أو ما أشبهه من مقام صادق أو خبر طارق أو رجل ذائق ، وقد يكون ذلك كله . ومن ملك خاصية أو أنعم عليه باسم من أسمائه قد يدخل معها بوجه ما . وأما ذكر الجاهد فى مقام المجاهدة فيقويه على مكابدة أمرها ويعود الجهد المؤلم من جملة ملذوذاته وتعود عادته بمجاهدة ثم تعود مألوقة وعادة كالأولى بل ألد . وحينئذ ينبغى له أن ينقل ويحق له ذلك ، لأن غاية المجاهدة تكميل النفس وإصلاح أخلاقها وثبوتها على الأحكام الشرعية ثم على الإلهية . ثم يعود الأمر فى غايته (إلى) اللذة والأنس ، ولا تجد النفس ما يسوؤها ، ويرتفع^(١) معقول الجهد والمفهوم منها الذى جاء على المبالغة بذكر الأنس وغايتها أيضاً المشاهدة . والذكر هو الحرك الأكبر فى ذلك ، فإنه إذا ورد الأمر الصعب على النفس فى حال الذكر يسهل . وأيضاً فالذاكر يذكر الفاعل فيخاف أو يرجى فى الوقت أو يستحي منه الذاكر — وجملة فضائل تصدر منه فى ذلك لا تحصى . وقد ينقله من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ويعينه على

(١) ص : ارتفع .

مجاهدة النفس لقواها . والجسم كذلك وجميع ما هو فيه بالقوة والفعل من هذا القبيل ومن هذا النوع . والعقبات التي ذكرها إبراهيم بن أدهم^(١) رضى الله عنه ، قد قيل إن السلوك عليها بالذكر صحبة التخلق ، والقصد الصادق والهمة الجليلة تقطع . وأخبر أبو العباس بن العريف رضى الله عنه أنه أبصر إبراهيم بن أدهم في النوم فقال له : « لِمَ قطعت أنت المقامات الستة التي ذكرتها ؟ » فقال له : « أى المقامات تريد ؟ » قال : « العقبات » . قال له إبراهيم بن أدهم : « العقبات قطعتها باسم الله الأعظم والتجلد الخالص » . قال له : « ومن لا اسم له ؟ » قال : « بِذِكْرِ الْمَسْمَى » . قال أبو العباس : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ وَانْتَفَعْتُ بِهِ ، وَجَمِيعَ مَا أَنَا بِسَبِيلِهِ مِنْ بَرَكَاتٍ وَصِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ .

وذكر صاحب الخلوة يُنتفع به في خلوته فإنه ينادم ربه بذكره ، ويتلذذ بالأنس به . وأيضاً يفرط الذكر في الخلوة يجد المواجد العظيمة وينال المراد منها ، لأن الذاكر إذا ذكر على ما يجب ، دَبَّرَهُ المذكور ، فإنه من أجله وله انقطع . وهو سبحانه يعلم ذلك . وأيضاً يدوم في خلوته فإنه ما دام يذكر يذهل عن نفسه وعن أخبارها بالجملة وعن أهل والوطن ، فيستقيم من غير أن يقر عليه وقته . والمراد من الخلوة الفرار إلى الله ، فلا شىء أولى من ذكره فيها ، بل هو الصورة المقومة لحال الذاكر والمتممة له ، لأنها عندهم من أمارات الوصلة ، والذكر هو الرابط لها . ولما توجه لما يحمل به ، وجب أن يفر عن أبناء جنسه ويستوحش من غير الله ، وبذلك يظهر عليه ذكره في جملة أحواله وتصرفاته بالمضمار . وبالدكر يتحقق أنسه بالله ، فإذا ذكر الله وعظم الذكر تكبر

(١) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر ، (أبو إسحاق) التميمي العجلي . زاهد شهير ، مولده في بلخ ، وكانت وفاته أثناء غزوة بحرية في تاريخ يترجح بين سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) وسنة ١٦٦ هـ (٧٨٣ م) . وقد صيغت حول حياته أسطورة شهيرة . راجع عنه : « دائرة المعارف الإسلامية » تحت المادة ، ثم « طبقات الصوفية » للسلمى (مخطوط المتحف البريطاني ورقة ١٣) ؛ « حلية الأولياء » لأبى نعيم ج ٧ ص ٣٦٧ — ٣٩٥ ؛ « كشف المحجوب » للهجویری ، ترجمة نكلسون ص ١٠٣ وما يليها .

الهمة ويصغر [١٠٠] كل شئ عندده ويبصر الأشياء ساجدة خاضعة لله العظيم ويصبيه حال الإخلاص الذي إذا قام به تفر أمامه الأمور الكاذبة لأنه الأفراد المطلق . ومن جملة ما يفر عنه الأخبار الكاذبة ، حتى إنه يقول لم نفر إلى الله وآننا نذم عباده ولا نفسى يسلم لها أنها تأخرت من شرهم إلى خيرها بل هم بالله والله وأنا من الله ومع الله ، وكل واحد منهم له ذلك . ومتى ألهم لذلك يسلم من استصغار الخلق ومن شهود مزيتته عن الخلق ويظفر بالتواضع . ومن رأى له مزية على أحد فهو متكبر . ويحركه الذكر لطلب ماهية الذكر فيحتاج إلى علم ما يمنع ذلك . ويكشف به ما يجب للذكور وما يجوز عليه ويستحيل في حقه أو تظهر عليه أحوال فوق العلم النظرى فيعجز عنها فيخوجه الأمر إلى رؤية الرجال . وهذا كله من فضائل الذكر . وأيضاً يمكن من خروجه عن الغير أن يعلم هل يصح له ذلك ، لأن الذكر لا يتم له من حيث هو ذكر إلا بما يحبه المذكور ويختاره ويرضاه فإن ذكر المشرع ما هو كذكر غيره ، لأن ذكره لا يتعدى فيه النقل ، وله ذكر يزيد وينقص وتبدل صيغه . والأمور إذا انحصرت بحسب الأحكام الخمسة يحتاج أن يعتبر مدلولها . فإذا كان ذلك كله احتاج الذكر إلى معرفة ما يجب عليه في الشريعة ، وما يحسن به في الخلوة ، وكيف يكون حكمها . وأيضاً الذكر يحرج إلى أن يعتزل عن الأخلاق المذمومة لأن الذكر يطلبه بطهارة القلب والحل على الإطلاق ويعم سائر الأعمال الظاهرة والباطنة ويسكن في ضدها ويتصف بها ، وحضرة الحق لا ينجر إليها ولا يتميز فيها إلا الطاهر التقى والمجد النقى ؛ والعزلة الصادقة إنما هي في فرار النفس عن القبيح المهلك لها لا البعد عن الأهل ، بل العارف النبيه هو الذى لا يكون تحت قسمة النوع وهو نوع وحدة ، ويكون من الناس وهو واحد من الناس . وهذا كله بعض فضائل الذكر .

وأيضاً الذكر في الخلوة والعزلة يجعلك أن يكون أنسك به لا بهما ، فإنه إن تأنست بهما في الخلوة أو العزلة إذا خرجت عن ذلك فقدت الأنس بالله ،

وقدت لذة الحق لأنهما علة ومعلول وأعوذ بالله من ذلك . وأيضاً الخلوة الصحيحة
التي من أجل الله ينبغي أن تكون كلها بالله ، ولله ، وإلى الله ، ولا يوجد في
الحل ذكر أحد غير الله وأيضاً من ذكر بجسم وكان من حيثه أتعبتة الحواس ،
ومن كان كذلك مع نفسه أتعبتة الأمانى والأوهام ، ومن اعتزل عن ذلك وخلا
بجيبه وذكره — أعانه على الجميع ومملكه من الكل وبلغه إلى غاية آماله ويستميل
نفسه إلى قول : الله ! الله ! الله !

ذكر الذكر ونوره ونصرفه في مقام التقوى

التقى إذا [١٠١] ذكر عظم خوفه وكثر أدبه وحضر في وهمه الوعد
والوعيد ، فيذكره بخوف فوت الوعد وخوف ضر الوعيد وقيام همه به . وأيضاً
التقوى تحض على مجانبة جميع ما يبعد عن الله ، والذكر يحزر هذه المجانبة ،
لأنه إذا استغرق أزمناً التقوى متى هم به وسواس الوهم ذكره الذكر فقر غزبه
إلى الأدب وأقام على خيره الأول . وأيضاً الذكر بالله وبأفعاله وصفاته ، فيطلب
التقى أن يعمل على تحصيل متعلقاتها ، فيذكره بالآخرة ، ويشوقه إليها . وأيضاً
الذكر نور ، والتقى يمشى بالنور على بصيرة ، وهو الذي يعلم جهة المضار فيتقيها
ويكون معه دائماً وحينئذ يكون مدركها تقياً . ومثال ذلك الرجل الذي يقول :
هذا هو السبع — فإذا لقيه في الطريق وهو مع هذا لا يفر عنه لم يفده علمه به
الفرار عنه ، وإذا جمع مع العلم به الفرار عنه سلم وظهرت السلامة بازدواج العلم
والعمل . وإذا لم يفعل ما يجب في ذلك كان مثل الذي لا يعلم به ، بل الأول
أصح إخباراً منه ولعله بكونه لا يُخبر عنه يكون سبب سلامته منه ، فإن
النفوس إذا لم تُخَوَّف لم تخف — فافهم . وكل خير يطرأ عليها منها فإنها إذا
انفعلت فعل فيها وبالعكس ، وهذا على جهة الأكثر .

ذكر فضيلة الذكر في باب الورع

الورع إذا ذكر زاد ورعه وحُفظ حاله ، لأن الورع كناية عن ترك الشبهات ، أو ترك ما لا يعينك ، أو ترك المشغل بالجملة ، أو إهمال ما لا تحمد عاقبته . وذلك لا يصح إلا بالتقليل والزهد المحض ، ولا يقوى إلا بالتقوى ، ولا يمشي نحو الصواب إلا بالعلم ، ولا يدوم إلا بالصبر ، ولا يحمد إلا بالرضى ، ولا يكمل إلا بالأنس بالله . فإذا ذكر الورعُ الذاكر الله في كل حين قامت معه زواجر الأحكام الشرعية وعظمة الأمر ، فإنه يسمع ويرى من حيث الأمر والنهي والأمل في الله وما هو بسبيله من الاجتهاد على تحصيل البعض من نوره ونعيم داره وخزن أغراضه وسجن همته . فإذا كان هناك ، يسرح الجميع حيث يجب . فإذا همت النفس منه بمباح طلب الذكر منه سلامة الباطن من المحتملات وطهارته وطاعته . والمباح يجر إلى أمور ، وقد تصعبُ بنظرٍ ما ، فكيف ! وأيضاً يشغله بالله عن فعله مع كونه في غاية الزهد والحفاظة على الأحكام ، فيكون الأمر على أتم ما يمكن . وأيضاً الورع هو الذي يجعل الشرع في يمينه والعقل في شماله ، فما تعرّض له وتوقف فيه من جهة ما في شماله ، عرضه على ما في يمينه فإن قلبه ، وإلا تركه وفر منه . وهو ينظر بمرآة الأحكام الخمسة^(١) ، فإذا أراد أن يتصرف في شيء نظر إليه : هل هو من الأحكام الواجبة ، فيسرع إليه ويقضيه كما أمر ليس إلا . فإن الورع في الأمور به إنما هو في تناوله على ما يجب وكما أمر وسرعة [١٠٢] القبول لا غير . وغير ذلك لا يصح ، لئلا يصدر من ذلك سوء الأدب . والزيادة على الشارع كفر وبهتان ومحال . وله أن يزيد وينقص في المباح والنوافل وما أشبه ذلك ، وإن كان ندباً جَدّاً وأخذ بنفسه بالكثير لا بالقليل . وإن كان دون ذلك يفعل فيه بحسب هذا التقدير — فافهم . وهذا يحرره له الذكر ويذكره به ويزيد له فيه وينشط

(١) ومعنى : الحرام ، الحلال ، المندوب ، المباح ، المكروه .

وكأنه يسمع الأمر عز وجل يقول له افعل كذا أو اترك كذا ؛ أو يقدر ذلك داخل ذهنه . وأيضاً قد يستحى مع الذكر أن يفعل القليل الحمود ، فكيف الكثير من المذموم ! وبالجملـة الذكر جنة^(١) وجنة ومنة .

والورع إذا حرر القول فيه هو الذكر الخفى ، لأنه حينما ذكرت له النفس ما يحبه ذكر له العلم والعقل والشرع ما يجب عليه ويذكره لما يحبه المذكور ذكر المذكور المحبوب عنده من أنواع الذكر ، فإن المحبوب عنده من أنواع الذكر هو الذكر الذى يذكر الذاكر على مرضاة مذكوره المحبوب عنده ويذكره بما هو عليه فى معاملاته . وإذا كان الذكر بخلاف ذلك يقال له الصوت أو الخبر المهمل أو هو الذاكر الصامت ، لأن المراد من ذكر اللسان تصور القلب ، والمراد من ذكر القلب كشف السر وذكر الروح . والمراد بكل واحد مما ذكر : الله .

فضيلة الذكر فى مقام الزهد

الزهد العرفى هو الترك المعتدل لما لا يجب ، أو لما يشغل ، أو يضر نوعه وإن لم يضر شخصه . وهو الذى يحض على الورع من صفة نفسه ، ويسود الذهاب بسببه — وإذا انضاف إليه الخوف والعلم استقام الأمر . وهو ينظر إلى التوبة فى البداية فيقوى طلبه ، وينظر إلى السلوك ويتلذذ به ويتأنس بتحقيقه فيه ، وينظر إلى الغاية ويتردد فى أمره لأنه قد يظهر له فى الغاية أنها لا تنال إلا بعلم ما وبسبب ما فيكون مُحيراً فى أمره لأنه ما بين أن يطلب الكمال فيطلبه الشرط ببعض ما خرج عنه أن يعود إليه كما يجب ويطلبه المقام بالثبوت والهمة إن علمت قد تطلب الأولى . فإن جهلت فتغبط بالأول ، وتحمل الثانى . هذا هو زهد البعض والزاهد غير مراد . وأردت بهذا الكلام التوسط .

(١) أى : وقاية .

وأيضاً الزهد هو فقد ما إليه يحتاج بإرادة ، وأيضاً الزهد هو الفقر غير أن الفقر العرفي أجل منه وهو المذكور في « الفقيرية »^(١) . والزهد العرفي أجل من اللغوي . وأيضاً الزهد — إذا كان على هذا الخال والمحل — كبيراً بمعنى أنه هو بحسب خيره ، فتارة تراه في الأمر المهمول من الدنيا ، وأخرى تبصره في الحقير منها ، وذهمت عليه مملوءة بالحكم وبالأمر الشرعية المالكة للكلية المتبعة في الدنيا والآخرة . يحمد بالجملة ؛ وقد يحمد منه الزهد المنسوب ، والزهد المحسوب . وهو إما في النفس وهو زهداها في [١٠٣] عالمها ومنصبها وصيتها ورياستها وينهزم في هذا جميع أخلاقها ، وإما في الأمور التي فوقها . وهي إذا ظفرت بكاملها فتزهد في الأمور المنتظرة المعمول عليها عند الجميع — مثال ذلك : يزهد في العلم بمعنى لا يغتبط به في وقت ما ، لأنه يطلب المعرفة ويزهد في المعرفة لأنه يشهد المعروف ويزهد في التضرع إلى الله من النار لأن القرب من الفاعل أبطأ عليه وهم الفعل ، ويزهد في التأهب لنعيم الآخرة لأن اللذة القائمة بالجواهر استغنى بها عن كل لذة . ويزهد في ذلك لأن القصد أطلق له . ويزهد في ذلك لأن الهيبة هيبة في المكنة . ويزهد في ذلك ، لأن الحد حصره . ويزهد في ذلك ، لأنه مدلول الرضى . ويزهد في ذلك لأجل ذلك ، وفي ذلك أنه ذلك ، وكذلك بعد ذلك في وقت وجود ذلك . والزهد الذي في الجسم هو يعظم بحسب وجوه المتروك — مثال ذلك الزاهد في الإكسير الذي لا يقتنع به إلا برسم الغير المضطر وهو مع هذا الحسن يستجلب شهواته من الصور الطيبة ، وجاه يجلب العسير ويكون خليفة ملك الأرض وله نفس تطلب اللذات الطيبة ويجد في الطلب قوة استعداد وسلامة أعضاء وقوى ومملكة خصال يعجز عنها تفرحه بالحمد والتعظيم ، وما أشبهه . ولا نسبة بينه وبين من هو دونه مع كونه لا تبعاً تلحقه وجملة تقيه . فاعتبر ذلك وقس به وانسج على منواله الواحد في الوجود — والوجود قد يطلق في المقامات بمعنى ما ، وبالوجه

(١) إحدى رسائل ابن سبعين ، وستنشرها في عدد قادم .

الذى يقال انتقل ورحل وأخذ الأمر وظهر الصعود إلى غير ذلك لا أنه يعود إلى العرف الأول فيهمله . وهذا النوع من الزهد الإضافى . وأما الزهد الجليل فهو الذى يكون به الزاهد غريباً فى الآخرة ولا يتعرض إلى الأسباب المطلقة ويكون معها تاركاً على الإطلاق ولغير الله على الإطلاق . وهو بالجملة زهد لى يكتسب كماله . فإن كان زاهداً على الإطلاق حتى فى الذى يسرى له من الله كان مطلقاً ولا خير فيه ، إلا إن كان خبره الله ، أعنى يقول المقصود العين التى لا يصح معها طلبها لها والأمر من جهتها وبحسب ما يقال ، فاترك ما يضررك . ونقول : ومن حرر الوحدة ، وهذا بمعنى سلب وجمع على مجموعه ، فجمع وعوض بزهد ونجز بذلك . فإذا كان الأمر على ما ذكرناه فعليك أن تعلم أن الذكر هو الأصل فى ذلك كله . وما حملنى على ذكر الزهد وتقسيم ما ظهر لى فيه بحسب هذا التقيد وكونى أخذت فيه بزيادة ما أردت بذلك التنبيه على خسارة الدنيا وكونها مُهْلِكَةٌ وهى العلة القريبة والفاعلة بالجملة وصرف الهمم الكريمة — فافهم ! ونعود إلى فضل الذكر فنقول : ما من نوع من هذه الأنواع إلا وقد يجمع لك فى كلمة واحدة وهى جميع : مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يُغْنِهِ عَنْ غَيْرِهِ وَلَا تَأَنَسَ بِهِ وَلَا اِمْتَنَعَ بِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ فَلَا خَيْرَ فِيهِ [١٠٤] ويكاد أنه لا يمكن منه الخير ولا يصح فيه وجوده ، وأعوذ بالله منه .

وأيضاً الزاهد من أجل الله هو الذى يزهد فى أفعاله ، ولا يزهد فى الله ولا فى صفاته . وذكر الله هو الذى يثبت على حاله ، وهو الذى يثبت المقامات . وإذا زهد الزاهد وهو يذكر ربه ترك ما يجب تركه ، وتمسك بما يجب من أجل الله ، والله هو الكفيل به لأنه عز وجل يقول : « أنا جليس من ذكرنى ^(١) » . والحاكم العادل المرشد المعلم المدبر الغنى إذا تصرف عبده معه أعنى بمحضره ، وهو يذكره بمعنى أنه يشاوره ويطلب منه أن يختار له الأولى ،

(١) حديث قدسى .

وهذا هو الذكر النافع الذي يعقل فيه هذا كله . وما يمكن مولاه المذكور أن يتركه بترك ما لا يجب هو المعلم الأكبر ، وهو شيخ الشيوخ ، وهو يعلم الملك ، ويعقل في حركة الفلك ، وبه يبعث . وهذه المقامات ذكرت فضيلة الذكر معها ليظهر لك مجده في كل طور ونوع من أنواع شروط الكمال . ولما ذكرته قبل أنه بماهيته في كل المقامات من حيث هو جزء ماهيتها — احتجت إلى ذكره هنا من حيث هو متمم ومقوم . وبالجملة هو الفاعل للخير والشرف والكمال من حيث تأثيره في النفس الغافلة وبكونه يذكر وبالوقوف مع واجب مدلوله وما أشبه ذلك . وهو المادة من حيث أنه الموضوع الأول وهو بهذا النوع يقال باشتراك بأنه : الكتاب والسنة ، والجميع يرجع إلى معناه الموجّه . وأنا غنيت به هذا المعنى وتعلق إصطلاح به وخصصته بذلك . والمُشَاخَّة في الاصطلاح من شيم أهل القصور . وهو الصورة فإنه المعنى المحمول والشكل الظاهر في الضمائر وفي التعبدات ، وهو المتمم لما تقدم .

واكتفيت ببعض هذه المقامات لأنني ما قصدت إلا النموذج والتنبيه فقط على فضائله من جهة الدليل . وذهبت فيه إلى البراهين الإقناعية والخطابية في البعض ومن حيث البعض فإن من أهل الأحوال من هو هذا الكلام عنده من برهان وجودي ، ومن العلماء من يجعلها من قبيل الأمور الخطابية وفيه مخاطبة برهانية بل مخاطبات ، وفيه ما قوته قوة الجدل . ومن مخاطبته ما هي شعرية بالقصد الأول ، ومنها ما يستند إلى النقل والعقل بحسب ما ينظر فيه أو يقبل وبحسب حبّ الناس . وبالجملة خاطبت به من قام به هذا المقام أو تشوّقه أو تعرض إليه أو نبهه الأغراض أو مشاركا في العلوم معتدلا . ومن أراد الاجتماع بي في مدلوله وبيانه والانفصال عن متشابهه وما يجب فيه — أهلا وسهلا به حينما شاء من المواضع المعتبرة وغيرها . والله يعلم أنني بيضته ولم يُعَدَّ النظر فيه ولا أمكنني ذلك [١٠٥] ولا تصفحته ولا غيرت فيه ما جاءني من عند الله ، أعني الواقع من غير فكر ولا روية ، فإن الكل من عند الله على الإطلاق .

كذلك أكثر تقييداتي المرسومة في هذا الشأن بخلاف غيرها من التقييدات .
وجملة الأمر ، فرغت منه في يوم الثلاثاء من العشر الأول من شهر صفر سنة
ثمان وخمسين وستمائة ، والعمر آخر سن الشببية ، وقيدتها في نيف وساعة .
والسلام على المطفف في الرد والقبول ، والمقتصد والمقصر بحسب منازلهم ، ومن
جهة ما يجب ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

تفيم : محبة وصية صالحة منوطة بهذا التقييد وخاصة به . حافظ يأيها
الذاكر على أوقاته ، وابحث عن صيغة الذكر الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ،
وبالوقت الذي كان يستعمله فيه ، وبكيفية ذكره ، واحفظ جميع ما جاء في
ذلك ، وحافظ عليه واذكره لكي تحضر ، ولأن يذكرك الله عز وجل ولأن
تكون في حضرته وغير هذا صوت مسموع في عالم الطبيعة لا يتعدى ولا يحمل
الذاكر إلى ما بعدها وأعوذ بالله منه . وخُذْ نفسك بمواطن الذكر المحبوب
الشرعي ، مثل الذكر المذكور في الصلاة ، والذكر الذي قبلها وبعدها ، وعند
الصباح والمساء ، وعند النوم ، وعقب القيام ، ووقت الوُرد ، وفي دخول المسجد ،
وفي الخروج منه ، وعند النية في الإحرام ، وبعد التكبير ، وفي رؤية الهلال ،
والصور الموهلة ، ووقت الأذان ، وإقامة الصلاة ، وبعدها ، وعند سماع الدعاء يوم
الجمعة ، وفي الأشهر الحرم وعند سَمْعِكَ أصوات الحير الوحشية ، والإنسية ، وفي
المواطن الخالية ، وحيث الغافل والمجاز والجائر ، وعند سماع الصوفية وقبله وبعده
وفيه إذا حضر المساعد — وإلا نفسك أميل لعزَمِكَ وأثبتْ على عهدك وتصرفك
من غيرها — وكذلك عند الإحرام في المواقيت ، وعند دخول مكة شرفها الله
تعالى ، وقد فُعِلَ — وفي مرضك ، وعقبه ، وحال موتك . وإذا عزمت على
الشروع في شيء فقدم ذكر الله تعالى ، ثم صل صلاة الاستخارة . وعند ركوبك
البحر ، والحيوان ، وفي قتال العدو ، وعند إطلاالك عليه . والذكر الذي جاء بحسب
الأيام والأشهر وأوقات الليل والنهار ، وما جاء في الدخول على الملوك وغيرهم ،

وعند الطعام ، وفي حال النكاح ، وفي الصلاة على الميت وفي حال تناوله حيث يصل إلى قبره ويفرغ من أمره ، وفي زيارة القبور ، وفي معاهد الحج ومناسكه ويوم الوقفة ، وما أدراك ما يوم الوقفة ، ووداع بيت الله وما يلزم في ذلك كله ، ودخول موضع الحاجة ، وإرسالك الجوارح على الصيد ، وكذلك السهم ، وفي الذبيحة ، ودخول البلاد ، والأبواب ، وعند الزرع ، وتعلم حجتك وجوابك للملك في قبرك وفي الاستسقاء والاستصحاء واشتداد الأسعار ووقت الطاعون ، وتذكير الشجر ، وذكر العلماء والخلفاء والصحابة ، وصلاتك على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف السنة من غير السنة ، وفي الأسواق وعند رؤية المعيان والمطر والقمر [١٠٦] والشمس في الطلوع والغروب والبحر والسماء والبراري والمطر ، وعند كل حكم وكون ذكر خاص . وعقب البلاء والنعمة ذكر منقول ، وكذلك النعمة والعافية ؛ مثال ذلك يقول عند الرزية والحنة : « ما شاء الله كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! اللهم أنعم علينا بالصبر وعند النعم ، الحمد لله ! » وقد يكون الذكر في ذلك واحداً إذا كان الإدراك واحداً والرجل متوحد والوحدة مقامه ومعلومه . وهذه كلها محصورة مذكورة في الشريعة مسموعة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنسوبة له ولأصحابه ولأتباعهم وتحتاج أن تبحث عنها وهي أكثر من هذه . وإنما ذكرت لك المهمَّ ومن جهة أن نشوكت ونحرضك وكيف تفرق بين الشرع وغيره .

وأما الصوفية فلهم أذكار ، وكلها ترجع لأحكام الشريعة . فما منه مذکور وهو بحسب وظيفة ما شرعية ورُتّب عليه لا سبيل إلى الزيادة فيه والنقصان منه . وهذا الذي ذكرت لك منه ما جاء من قبيل الأحكام الخمسة وذلك بحسب اعتباره من المذاهب والاجتهاد والتقديم والتأخير والإطلاق والارتباط ، ومنه ما هو بحسب حكمة ما ومعقول المعنى وغير ذلك مما لا يحمل بهذا التقييد ذكره ويطول الأمر فيه . وقد فرغنا من المسموع المحصل ومن شروطه وأحواله ، وغرضنا أن نذكر لك ما سُمع من الرجال بحسب مواجدهم وتفكيرهم ، والذي يرجع منه

إلى الأول ويجتمع معه بأقل تأويل وأقرب مفهوم ، والذي لا يرجع ولا يقرب بحسب الأكثر والذي يبعد أو تعسر صرفه للأول على بعض الناس بالجملة وما أشبهه . وما نقل عن الأنبياء عليهم السلام بغير اللسان العربي فهو مع ما نحن بسبيله من الحق بحقيقة المثل ، فإن الفضلاء بالجملة ما اختلف أحد منهم في البحث عن الكمال ولا على ذكر الله بما هو ذِكرٌ ، وإنما الخلاف في الطريقة الشرعية أو في صفات الحق أو في صفات الله أو بعض الاختيارات والمبادئ والغايات فقط .

فنعول : أجل ما جاء في ذكر الله عن اليهود عشر كلمات مفهومها لا يشذ عن مفهوم آية الكرسي وآخر سورة الحشر على خلاف يذهب فيها . وفي الإنجيل تسبيح يوحنا وكلام المسيح الذي كان يتكلم به في الليل ، وحاصل ما فهم منه مجموع في هذه الكلمات التي نذكرها لك وهي مرموزة مني ، غير أن الذاكر ينتفع بها وهي : « عمرش اش عمر صح راهيا ايدحا ايهم اردع صعسر عمرجم كعلم » . وقد ذكر أبو طالب المكي في كتابه مثل هذا . والأصح عندي أن يتوقف في المسموع من أهل الكتاب كما جاء في الأثر ، إلا ما ينقله الرجال عن الرجال وعن الأحوال .

ومن أسرار الصوفية الذكر المحمود هو الذي يصدر عن الرجل في حال الشهود وهو الفعّال عندهم وبه يقع الانتفاع وبه يفهم عن الله ونبّيه وعندهم وهو لا ينضبط فإن [١٠٧] الله إذا تجلّى يجعل قلب عبده كرسية الموضوع لحكمه وعرشه المدبر لعالمه في عالم الطبيعة المدبر . وهذا الذكر لا ينضبط للعربي ، ولا للعجمي ، ولا هو بحسب لسان ، فإن الحضرة الإلهية واسعة وهي تمشي على حكم الممكن القابل الواسع الكلّي . هذا ما كان منها في المدرك المحصل للذوات ؛ وما كان منها يرجع للحد الأعلى هو على جهة الوجوب ، ولا يمكن في هذا أكثر من هذا فاعلم . وأيضاً الروح لا تحصره اللغات ولا يخاطب بها ، وطبيعته قبول الكلّيات وإذا ترك هو وعالمه العلويّ يعلم ويفعل من صفة نفسه . فكيف تطلبه

بأثره وتحب أن تجعل الظل يحكم على الشخص والآلة على الصانع ! وأيضاً الرجل هو في الأرض أنموذج مجموعهم فلا يَحْصُرُهُ شَيْءٌ إلا الجلالة المنسوبة إلى الله في مظهر مفروض أعنى جزءاً منه في ذلك هو يعتبره ويحترمه وذلك يلزمه . وأيضاً الرجل هو رحمة على العموم ، وهو يدبر أهل الأرض وخطابه لا يتوقف . وأيضاً المَلَكُ إذا خاطب لا يستند إلا إلى المجاور المحفوظ والروحاني المؤمن ، والقرين قد يحدث بغير لغة الرجل الأولى . واعلم أن للملائكة أذكراً مختلفة : لملك المطر تسبيح وملك الرعد كذلك وكذلك لملائكة السموات أذكراً مختلفة ، ولملائكة الأرض ، وللمقيم الآن في الجنة ولأهلها بعد ذلك . فلا تتوقف على ذكر ولا تنكر على الرجال ما تسمع فلعلهم كُوشِفُوا وخُوطِبُوا . وَمَنْ هو قلبه فارغ ينتظر ما يرد عليه من الأزل لا يحصر ولا يغير عليه . وقد جاء أن للحيوان البري والبحري أذكراً . وقد جاء الذكر على العموم في الجناد وغيره في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »^(١) . فقل إذا وجدت البحر والوجود والحمد : « قهرم طمس هوالم صعنج ، ذلكم الله ربكم ، يا يايأ » . — ذلك من جهة المسئلة ، ذلك من جهة أن تختار ، ذلك من جهة شكر . والذي تحتاج أن ترتب في ذكر الله أن تبدأ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وتصلي على ملائكته ورسله وأنبيائه وأتباعهم وأتباع أتباعهم ، وترضى عن أهل الملة وعن رجال الله كلهم ، وعن المؤمنين من الإنس والجن ، وتقرأ « الحمد لله » إلى آخرها ، وأول كل سورة ووسطها ، وآخرها كلمة أعنى آية فقط ، ثم تعود تكرر السُّورَ أعنى التي فيها الحروف المفردة ، وتقرأ سورة « الإخلاص » وآخر « الحشر » ثم تقول : « الله ! الله ! الله ! » وتقرأ : « آمَنَ الرسول »^(٢) وتقول : « الله » سبعاً ، وتقرأ

(١) سورة الإسراء آية : ٤٤

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٥

« شَهِد^(١) الله » وتقول : الله ! الله ! مائة مرة ، وتقرأ « إن^(٢) ربكم الله » ثم تقول « الله » وتقرأ سبع آيات من أول « الرحمن » ثم تقول « الله » وتقرأ آية الكرسي ونوع صوتك وكيفما أردت انطق والذي تجد نفسك فيه أجمع . وأطيب وأجل الذكر ما أنت فيه كذلك . وعليك بالترجيع ، والترتيب فيه كذلك حتى يطيب لك إن كنت ممن يطلب الأُنس وإن كنت في ذاتك قد وجدته في الجوهر . ومتى أردته يصلك فلك الخيار وجميع ما توجه الضمير إليه [١٠٨] اذكره به ولا تُبالِ ، وأى شئ يخطر ببالك سَمِّه به ، ومن اسمه الوجود كيف يخص بأسماء منحصرة ! هيهات ! الله لا اسم له إلا الاسم المطلق أو المفروض ، فإن قلت نسميه بما سَمَّيَ به نفسه أو نبيه — يقال لك : مَنْ سَمَّيَ نفسه « الله » قال لك : « أنا كل شئ وجميع من تنادى أنا هو » . وإن صعب عليك هذا ، فعسى تسلم أنه معك بالعلم والفعل . فإذا سلمت هذا تسلم أن الذي استجاب لك إنما هو الوجود . فإذا سلمت هذا سلمت ذلك فعجل بذلك ولا تكن كذلك فما يحق لك ذلك . يا هالك ، يا مالك ، انظر منْ حالك وقل بعد ذلك : يا حق ! يا أبد ! يا راحم ! يا أحد ! يا أكبر ! يا واجب الوجود ، الذي الوجود و وحدته واحد ! يا ماهية كل ماهية ! يا آنية كل آنية ! يا معلم قد تعبت ، ارحمني قد هلكت ، أغثنى قد عجزت ، خلصنى ولا حاجة لى بشئ لأنك كنت عينه ونخاف تمقتنى بمجرد الطلب ، لكنه من أجلك فاجمعنى بك ، واجمع على إياك ، واجعلنى إلى عندك . عرفتك فلا شئ يقنعنى ، إذ لا شئ عندى إلا أنت . وكان بعضهم يقول : « يا الله إلهها يا الله الا يا يا الله الا الا يا الله الا أيا » . وبعضهم كان يقول : « قد قد هذا هذا هذا له له له » . وبعضهم كان يقرأ القرآن فإذا ختمه يقول : ختمته بالجسم ونُحِبُّ أن نختمه

(١) سورة آل عمران آية : ١٨

(٢) سورة يونس آية : ٣

بالروح ؛ ثم يقول : نعم نعم نعم ! وهذا كله أردت أن أعرفك بتراجم الأمور وبعين
المعلوم وبحقيقة الأمر فافهم . والسعادة كلها حمدية محمدية خلدية ، ومعاد التحية
والرحمة والبركة على الجميع .

قال ذلك عبد الله وهو عبد^(١) الحق بن مراتب توبة رسول الله صلى الله
عليه وسلم في اليوم ، لطف الله به والحمد لله وحده . قيدتها للمُحَقِّق على الإطلاق ،
ومن أجل الله بالقصد الأول ، والولد الصالح النبيه النجيب المحب في الله ولأهله
نور الدين بالقصد الثاني بأنه يبحث عن سعادته ويسعى في صلاح عاداته وإصلاح
عبادته ، وقد عَزَمَ على تحصيل معناه والظفر بما تمناه ، وتمسك بجبل حب الله ،
وجعل حب حاله بيمينه ، نَوَّرَهُ الله بالعلم الذي يحمل إلى المعرفة وإلى مضافات
اليقين الثلاثة وإلى العلم المحسوب بعدها بصيرته ، وأصلح سره وسيرته وسريته ،
وحمله على الطريقة وجمع له في كسبه الملكوتي بين الشريعة والحقيقة^(٢) ، وكشف
له عن حقائق الأمور حتى يبصر المعقولات بعين قلبه كما أبصر المحسوسات بعين
حِسِّه ، وأيده بروح منه وعَرَفَهُ طريقه وحبَّبَ له صديقه وفريقه ، وأنعم عليه
بالنور الذي إذا قام به أبصره بنفسه وأبصر به ما سواه ثم يبصر به فقط ثم
ما هو على ما هو به بما هو هو حتى يصل إلى الشاهد لنفسه المتفق من جميع
جهاته ورزقه الله التجوهر بالحمود المدبر . وبالجملة عرفه الله الحق وحرَّرَ له قصده
وحَفِظَ بمجده مجده وأدام بمجده جده ، ورحم والده وجده [١٠٩] ويسر له حده ،
وألهمه حمده ، وجَدَّدَ له في ذلك جَدَّهُ ، وغَبَّطَهُ بوجوده وتواجده وقَوَّى له وحده ،
وسميتها « النورية » منسوبة إلى لقبة ، فإنها مرسومة برسمه ومشهورة باسمه
ورضى الله عن المعتبر عند المعتبر وأنعم عليه به ، وجعله أجل من الذي يقول
وقوله الحق وقطعه العالم الذي يفتقر فيه إلى البحث عن تحصيل السعادة

(١) أى المؤلف نفسه ابن سبعين .

(٢) الحقيقة : هى التصوف .

وتستطرف فيه المقامات وخرق العادة محي الدين بالله وعن جميع أصحابنا وسلام الله عليهم بجميع أنحاء الحمد المضافة له ورحمة الله وبركته . يا نور الدين ! اغتبط بهذا اللقب الذى لقبك الله به ، فإنه فى غاية الحسن واشكر الله ربك عليه واجعله مذكرك بالله . وإذا دعاك أحد به تذكر به إلى مدلوله العزيز واسمع منه وحصل قوانين الذكر المذكورة وقادم بذكر المعروف بك باسمك المذكر باسمه ويكون الذاكر والمذكور والذكر منك وإليك . واعلم أن النور محمود الحال ، وكل طائفة تعظم هذه الكلمة ، والله يقول : « الله نور السموات والأرض » ^(١) ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر وقد سأله : « هل رأيت ربك ؟ قال : « نورٌ أنا أراه » . والنور كثير المفهوم وعزيز المعلوم وجليل القدر فى القلب . وهو الضياء لغةً ، وهو الذى إذا ظهر ظهر بنفسه وظهر به ما سواه محسوساً ومعقولاً ، وهو الشاهد لنفسه المنفق من جميع جهاته الذى تدركه الحواس الخمس ويتطرق إليه الوهم ويدل عليه الدليل ويعلم ببيهة العقل . وهو طبيعة الأرواح ، بل هو الوجود على الحقيقة ، وهو الكاشف الظاهر . ولذلك يجوز أن يقال فى القرآن « نور » فإنه يكشف وبه تبصر طرق السعادة . والنبي نورٌ ، والعقل نورٌ ، والعلم نورٌ ، والشيخ نورٌ ، والطريق — وما أشبه ذلك . والناس يعظمون هذه الصيغة ، ومن عظمتها دخلها التأويل الكثير الخارج منه المرئى خارج الذهن والداخل ، والخارج الفلكى قد عُبِدَت موضوعاته أعنى الكواكب ، والطبيعى أعنى النار كذلك ، وذلك على جهة مجاورة المثال ولكون الكشف الذى يتناسب والداخل النفس والقوى والعقول المستفادة والأحوال الشريفة . والمتكلم يقول فى قول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض » ، معناه : هو الهادى وصدق ، ويقول هو خالق النيرات وصدق ، ويقول هو منور وصدق . والفقيه يقول ذلك بحسب ما تقوله العرب . وقد قال بعضهم :

(١) سورة النور آية : ٣٥

العلم نور يضعه الله في قلب عبده . وإذا عدل في ذلك عما تقوله العرب أطلق على مدركات ، لأن العرب تطلقه على الضياء .

والمصوفية تطلقه على الأحوال الكاشفة تارة، وعلى الأرواح أخرى، وعلى المواهب ثالثة ، وعلى المشاهدة رابعة ، وعلى الاستغائة خامسة : وفيه قال أبو طالب المكي : « لا يرى إلا بنوره ، ولا يشهد إلا بحضوره » ؛ وعلى ما يخص السر ، وعلى الظفر بالعلم اللدني ، وعلى الوجود ، وعلى الجمال المطلق ، وعلى التوحيد الخالص . واليه أشار الغزالي في آخر « المشكاة »^(١) وقسمه [١١٠] إلى أقسام ، والأول منها تكلم عليه بحسب الصنائع . والمحقق يجعله الإحاطة وقص التطور ، والقضية الجازمة ، والتقديس البسيط ، والعين الجامعة المانعة ، والعموم الواحد ، والامتداد القصير ، والوجود الغائب الحاضر ، والمعنى الذي لا يخبر عنه ، وإن أخبر عنه وقع في غيره أو فيه بالوهم من حيث أن له ذلك كله من غير قصد للمخبر .

والفيلسوف يطلقه على الذوات المفارقة بالجملة ، وعلى المفارقة بالنظر إلى ذاتها ، لأنها فارتت الأجسام لا من جهة الاستعمال كنفوس الأفلاك والنفوس الجزئية . ونور الأنوار عندهم هو الله . ومنهم^(٢) من يقسم الأنوار إلى ثلاثة والرابع هو الطبيعي ، وهو عندهم على جهة ضرب المثال بالنظر إلى الأنوار . ومنهم من يطلقه على الهيولى وعلى الصورة المجردة والمثل المعلقة^(٣) . ومنهم من يقول : عالم النور هو عالم آخر فوق ذلك كله ، وهو العالم الذي هو لله على الخصوص ، والله عندهم أجل من أن يطلق عليه اسم النور ؛ وإن أطلق عليه فانما هو في بعض المظاهر للتشريف .

(١) أي « مشكاة الأنوار » لأبي حامد الغزالي — راجعها في « الجواهر الغوالي من رسائل الغزالي » ، طبعة محي الدين الكردى ، القاهرة .

(٢) الإشارة هنا إلى السهروردي المقتول ، خصوصاً . راجع « هياكل النور » للسهروردي المقتول .

(٣) راجع عن المثل المعلقة نشرتنا : « المثل العقلية الأفلاطونية » نشرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ص ٨٥ — ص ١١٥ ، بالقاهرة سنة ١٩٤٧

والجوس يُطْلَقون النور على الله ، وعلى الخير المحض . والبراهمة إذا ذكر عندهم اسم النور يسجدون في ذلك الوقت عند ما يذكر بينهم إذ يسمعون ؛ ويتكلمون بكلمات مفهوما بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم : « أنت ! أنت ! أنت ! تعاليت يارب الأرباب » . والنور عند اليهود حينما جاء في توراتهم المراد به عالم الملائكة وحضرة الحق وصفاته . وعند الإفرنج هو كناية عن اللاهوت ، وبالخصوص في عيسى ^(١) هو النور الذي أهبطه إلى الأرض ، وهو واحد بالموضوع كثير بالقول والهيئة وبالعكس إذا تشخص المظهر المعتبر . وبالجملة مذاهب الإفرنج خمسة النبوية منها هي القريبة من الفلسفة ، وكلها تتكلم في النور وتعظمه ؛ وغير هذه الخمسة لا تصلح لشيء ولا يصلح الكلام فيها لحكيم ولا لمسلم . والقوم على فلسفة أفلاطون عاكفون وهم لا يعلمون . وأعوذ بالله من دين لا يُعلم فيه قصد الله ولا تحرر فيه قوة نبية ومراده .

فاعلم النور يأنور الدين ! فاعتقد أنه من خواص الدين واشكر مالك يوم الدين عز وجل .

نفثات صدر بعض الذاكرين ، كان قد كظمها ، صيغها فضل المقال ، ومدلولها نوره شجر نور الخلد حيث الحل والحال تحض على الله وتصد عن اللاهي . فلتذكر الله حكمة لا يعقلها إلا ضمير الصديق : ذكر الله نور ، ولكن لا يبصره إلا نور حذقة البصيرة . ذكر الله نسيم حضرته ولا يدركه إلا صديق . ذكر الله نعمته الأصلية ، وطريق جنته الآجلة ، وعين جنته العاجلة . حال الذاكرين رائحة أنفاس الذكر ، ولا يشمها منهم إلا منيب أو مدرك . ذكر الله عبادة ملائكته وسبب قربهم . ذكر الله خيره المعتبر . ذكر الله عقل مستفاد . ذكر الله نتيجة مقام الإحسان . ذكر الله نتيجة مقدماتها [١١١] الإيمان ، وبرهان قياسها الإخلاص . ذكر الله روح منفصل يحفظ الروح المتصل فإذا اتصل كان الوصول . ذكر الله لذة لا يكيفها أحد . ذكر الله استرواح

(١) الإشارة هنا إلى الآيات الأولى من الأنعام الأول من « إنجيل » يوحنا . — ويظهر أن ابن سبعين كان على علم واسع بمذاهب النصارى .

الأرواح لعالمها وسُلَّمُهَا المنتسب . ذكر الله باب الفكر النافع ، وذلك الفكر باب التطلع الكاشف ، وذلك التطلع باب النصفح الصادق ، وذلك النصفح باب الاتصال الثابت ، وذلك الاتصال باب الخلافة الكاملة ، وتلك الخلافة باب الحرية ، وتلك الحرية باب الشأن الثابث ، وذلك الشأن باب الكنه والبَاب الذي يلي هذا ورد الأمر بِسدِّهِ، وجاء النهى عن فتحه . وقد فتَحَ بالإِزام فافهم . ثم افتتح حديث نفس نفيس — غَبَطْتُ مَنْ يَذْكَرُ ثُمَّ يفكر فيجد ، أو يجد ثُمَّ يذْكَرُ فيفكر ، وعجبت ممن يذْكَرُ ولا يفكر فيجد بل ممن يفكر ولا يذْكَرُ فيجد ، بل ممن يجد ولا يذْكَرُ فيفكر ، بل ممن يجد ولا يفكر فيذْكَرُ ، بل ممن يجد ثُمَّ لا يذْكَرُ ولا يفكر فيجد ، بل ممن يذْكَرُ ولا يفكر ثُمَّ لا يجد ، ثم ممن يجد ثُمَّ يفكر ولا يذْكَرُ ثُمَّ لا يذْكَرُ ولا يفكر فيجد ، بل ممن يذْكَرُ ولا يفكر ثُمَّ لا يجد وبعْد ذلك يجد ، بل ممن لا يجد ولا يجد أَنَّهُ لم يجد ولا يمكن فيه أَنْ يجد ، ولا يعقل الوجود فى غيره ، بل ممن هو كذلك بجملته ، ولا يصح فيه ذلك بالوجه الذى نذكر فيه التقديم والتأخير والتنوسط قبل تنوع الشئ المشار إليه صلبة مجموعهُ الذى فرضه الوهم وتوهم فيه الأقل والأكثر ، والكلام فى الإنسان بحسب اصطلاح الواصلين بالوصول المُعتبر . فإنَّ إنسان الحكماء وبعض الصوفية بُهَّتَان وآلة حرمان ، وبوجه ما بستان ومظهر رَحْمَن وَحَجٌّ وبرهان ، وبالجملة إنسان عامة خاصة الخاصة ينشد^(١) :

(١) :

أنا الغريقُ فما خوفي من البلل ؟ !

فإذا صَعِدَ إلى حَقِيقَتِهِ بالتركيب ينشد بيت لبید^(۲) إذا نزل بالتحلیل .
ثم یقرأ « سبحان الذی بیدِهِ ملکوت کل شیء وإِلیهِ ترجعون »^(۳) ؛
ویشیعهُ بقوله : « أفی الله شك »^(۴) ویردِف بقوله : « قل أمر ربی

(۱) شطریٹ شعر .

(٢) الإشارة إلى بيت لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

(۳) سورة ياسين آية ۸۲ .

(۴) سورة ابرهیم آیه : ۱۰

بالقسط^(١) « في نهايته ووصوله الذي لا يصح بعده ما يفرض فيه بوجه ولا على حال ، ولسان حاله يقول : « وأن إلى ربك المنتهى^(٢) » وانسان خاصة الخاصة ينشئ أمره بين مظهر ومظهر ، ويتوسط في حق وانجرار وهم ، وينتهي حيث يستقيم كنهه بمعنى أنه هو ومحمود في مهد سكينه صحبة بساطة عريّة عن شوائب التقديم والتأخير والعد ، والذي يجمع بين العدد ووجود الوحدة المطلقة أعنى وحدة الوجود ويكف عن كل ما يدخل تحت هذا القبيل من الأمور الإضافية مثل الزمان والمكان والقَدَم والحدوث والفاعل والمفعول ، ولا ينكر وجود ما في وجوده إذا كانت الماهية هي نفس الوجود . وهذا الكلام عنده بحسب الناس وتكون النفس تطلب بشأنها ، والموضع لا يسع فيه أن يتكلم فيه بما هو به على ما هو عليه أصلاً : وكل كلام في التحقيق هو بخلاف الحق أو معنى يخبر [١١٢] عنه ولا يجتمع معه في الدلالة ويجتمع معه في الوجود . ومن أهل الحق من أنكر هذا وقال هذه بَقِيَّةٌ وهمية ، ومنهم من أنكر على هذا المنكر لا من حيث التعليل فقط بل من حيث ذلك والملاحظة والتعقيب . فنرجع إلى حاله فنقول : هو يستند ويجمع أخباره وكله نقطةً وامتداداً ودائرةً وقبضاً وبسطاً . ثم ينظر في هذا ويحيله ويعود إلى الوحدة النقيّة الخالصة التي تكاد أن تعزى عن الوحدة لإفراط إفرادها ولكونها أنكرت النسب والأسماء . وهذا التوقيف عنده هي العبودية ، وهي التي تغدّم منها بساطة الوحدة في وجودها بها وقيامها عليها فقط . هذا عند بعضهم ، وبعضهم يمنع ويهدد أخباره كلها وحيثما يجد الضمير سكنه بها ، وهي أيضاً تجذبه . وإثبات فصّ الحق وأصله قد نبهت عليه في « بد العارف » وفي كتاب « البُهِت » وفي البحث « في الشأن العزيز » ، ومن قبله هو قطع مستمر وكُنْهٌ لاحقٌ وحمدٌ غالب ، ونور مرسل ، ثم ما هو أعنى هذا المشار إليه بشرط أن يترك . فاعلم واجهل ، وبالفرض المقدر فكيف . والحمد لله وحده .

كملت الرسالة النورية بعون الله . فالحمد لله

(١) سورة الأعراف آية : ٢٩

(٢) سورة النجم آية ٤٢